

المشتوق

مدريد السحر والشعر

تأليف

محمد كرد علي

الناشر

مكتبة نوايح الفكر

الطبعة الاولى
1430 هـ - 2009
حقوق الطبع محفوظة للناشر
شركة نوابغ الفكر
19 القطامية (القاهرة)

هاتف: 25936402 ، فاكس: 27865553

E-mail: nawabgh_elfekr@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

على ، محمد كرد
دمشق مدينة السحر والشعر / تأليف محمد كرد على
ط 1 - القاهرة : شركة نوابغ الفكر ، 2009
160 ص ، 24 سم
تدمك : 7-39-6305-977-978
1- دمشق
ا- العنوان

ديوى : 915.6531

رقم الايداع : 2009-8408

بسم الله الرحمن الرحيم

دمشق وطبيعتها

دمشق بكسر الدال وفتح الميم وإسكان الشين اسم هذه المدينة الجميلة مدينة السحر والشعر. قالوا إن أصلها لفظة آرامية عمارة (مشق) تتقدمها دال النسبة.

وقد وردت في اللغة الهيروغليفية على هذا النحو تقريبا ومعناها الأرض المزهرة أو الحديقة الغناء.

وأطلق الآراميون عليها اسم (درمسق) والسريان (درمسوق) وأهل لغة التلمود (درمسقين). وقالوا إن إرم ذات العماد التي وردت في القرآن الكريم هي دمشق بعينها وبعض المفسرين يذهبون إلى ذلك، الآية الكريمة { ألم تر كيف فعلت ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد } قال شبيب بن يزيد بن النعمان بن بشير:

لولا التي علقتني من علاقتها لم تمس لي إرم دارا ولا وطننا

قالوا أراد دمشق، وإياها عنى البحري بقوله:

إليك رحلنا النعيس من أرض بابل	يجوز بها مست الديور ويهتدي
فكم جزعت من وهلة بعد وهلة	وكم قطعت من فدفد بعد فدفد
طلبك من أم العراق نوازعا	بنا وقصور الشام منك بمرصد
إلى إرم ذات العماد وإنما	لموضع قصدي موجفا وتعمدي

ومعنى آرام العالية أو سهل مرتفع نحو ألفي قدم عن مساواة البحر. وقد وردت في التوراة عدة أسماء مضافة إلى آرام.

وأطلقوا أسم (جلق) بكسر أوله وثانيه وتسديده على مدينة دمشق. وقد ورد هذا الاسم في الشعر القيم ومنه في شعر حسان:

الله در عصابة نادمتم يوما بجلق في الزمان الأول

وقيل جلق اسم لكورة غوطة دمشق كلها وقيل غير ذلك. ويكاد يكون الإجماع على أن جلق هي دمشق، وسموا دمشق جلق الخضراء والغوطة وذات العماد، ولقبت بالفيحاء - والفيحاء الواسعة من الدور والرياض - وسماها بعضهم بجيرون وسماها آخرون بالعدراء.

تعلو دمشق ٢٢٠٠ قدم أو نحو ٦٩١ مترًا عن سطح البحر المتوسط وتبعد عنه نحو ٦٠ ميلا. قامت في نجد من الأرض. ومعدل ما تجود به سماءها من المطر كل سنة نحو ٣٥٠ ملمترا. وهي تقع في عرض ٣٦/١٨ درجة من الطول و٤٣/٢٠ من العرض.

يطل عليها من الشمال جبل قاسيون وهو فرع من فروع جبل سنير الذي يطلق على بعضه اليوم اسم جبل قلمون، ويشرف عليها من الجنوب الجبل الأسود وجبل المانع، من الغرب جبل الشيخ المعروف بحرمون في التوراة وبجبل الثلج عند قدماء العرب. وغربها مفتوح وكذلك شرقها، فهي سهلية جبلية، ومعتدلة الهواء تأخذ الفصول الأربعة فيها حكمها، وقد تنزل درجة الحرارة في الشتاء إلى اثنتي عشرة درجة تحت الصفر وتصعد فيها أيام الصيف إلى نحو ٣٧ درجة. وهي هبة (بردى) الذي سماه اليونان نهر الذهب، كما أن

مصر هبة النيل، وبردى يسقي المدينة بعد تقسيمه ستة أنهار منها ما يدخل البلد وهي بردى (النهر الأصلي) وقنوات وبانياس ويزيد وتورا، واللذان يسقيان الضاحية فقط الداراني وقناة المزة.

وكانت دمشق لقربها من جزيرة العرب والعراق والجزيرة ومصر مدينة تجارية تصل بين الشرق والغرب. وظلت عامرة على اختلاف العصور نحو أربعة آلاف سنة. فهي أقدم مدينة في العالم باقية على عمرانها. ومما تفخر به أن لها الوادين وادي بردى ووادي العجم، يشق الأول نهر بردى مضافة إليه مياه عين الفيحة، ويشق الثاني نهر الأعوج المعروف عند القدماء باسم فرفر، ومخرجه من سفوح جبل الثلج، ولا يدخل المدينة بل يسقي بعض قرأها القريبة.

ومن خصائص دمشق أنها وسط غوطتها الغناء تخرج لها بقولها وفاكحتها وأخشابها وأحطابها، هي على مقربة من إقليم حوران تجلب منه جوبها الجيدة، وعلى أميال يسيرة من إقليم الجولان ترعى فيه ماشيتها، على فراسخ قليلة من مصايفها ومشاتها. ترى في بعضها الهواء العليل البليل طوال السنة، وفي الوقت عينه تشهد حكم الصيف. فغورها على مقربة من نجدها وجبالها كسهولها تتعاون على جلب الخيرات إليها، والثلج لا تخلو من أعالي جبالها صيفاً وشتاءً، وماء الشقة يجلب إليها في أنابيب تسقى دورها ومصانعها، وتدر في المدن الكبرى مدينة كهذه تسقى ماء طاهراً لذيذاً ماء عين الفيحة، وبهذا قلت الأمراض الوافدة على ما كانت في الأعصار الخالية.

تاريخ دمشق السياسي

تاريخ دمشق القديم

استولى الآشوريون والبابليون والفرس والأرمن واليونان والرومان على هذه المدينة. ومنهم من كان تطول أيامهم فيها كالرومان، حكموها سبعمئة سنة، واليونان حكموها ٢٦٩ سنة، ومنهم من كانت لهم منزل قلعة كالأرمن، استولوا عليها ثمانى عشرة سنة. وكان الدمشقيون هم الذي استدعوا صاحب أرمينية لما ستموا تنازع الرومان والفرعنة عليها. والغالب أن الفرعنة لم يستولوا على دمشق واكتفوا بالاستيلاء على ساحلها غير مرة. ووقعت في أيدي اسكندر المقدوني ثم في أيدي خلفائه السلوقيين، وفي أيامهم كانت دمشق هيلينية يونانية كما كانت في عصور كثيرة سريانية أرمية.

وكان شأن دمشق في النكبات شأن العواصم الكبرى إذا اضطرب حبل الأمن في البلاد المجاورة لها، ولا سيما في البوادي والأقاليم، أو تنافس الرؤساء، وكان أكثرهم أشبه بعصابات لصوص - تضاب بأذي كبير فتقف تجارتها وتضعف زراعتها، ويجمع فقيرها بل يزيد فقراؤها، لأن كل بائقة تنال الأقاليم المجاورة تحفز المنكوبين من أهلها على الاعتصام بدمشق. وما عرفت هذه المدينة طعم السعادة في أكثر أيام الرومان، وشقيت بهم في آخر عهدهم خاصة، فكانت رومية لا تعد أهلها وطينين رومانين بل غرباء ورعايا، وكثيرا ما كان الدمشقيون يبيعون أولادهم ليؤدوا ما تتقاضاهم رومية من الجزية.

دمشق قبل الفتح العربي

سقطت دمشق في أيدي دولة النبطيين العرب في سنة ٨٥ قبل الميلاد، فتحتها الحارث النبطي فكانت نبطية من سنة ٣٧ إلى سنة ٥٤ للمسيح. وظهر النفوذ العربي في دمشق في عهد مبكر جداً، وهل النبط إلا عرب بأصولهم؟ وإذ كانت هذه المدينة تحت سلطان أهل الوير لم يجعل منها الرومان عاصمة ولايتهم، بل جعلوا مدينة حمص قصبتهم. ولم تخضع دمشق خضوعاً تاماً لأمراء العرب الحاكمين في أرجائها، حتى ولا للغسانيين الذين كانوا عمالاً للروم ويرابطون في الجنوب والشمال والشرق فتتقى دمشق بهم عادة الأعراب.

ولنا بذلك أن نقول إن اللغة العربية انتشرت في دمشق وأرجائها قبل الفتح الإسلامي بزمن طويل وسبق إلى نشرها إلوثنيون من العرب ثم منتصرة العرب. وإلى هؤلاء يرجع الفضل في انتشارها. والفتح العربي مدين للمنتصرة العرب لانضمامهم إلى بني قومههم وكانوا مع الروم يوم الفتح، فغلبت عليهم النغرة الجنسية أكثر من النعرة الدينية لما شاهدوا أعلام الدولة العربية الجديدة.

دمشق في الإسلام

تولى فتح دمشق كل من أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان من كبار الصحابة، حاصروها بعد وقعة اليرموك أعظم وقائع العرب في الشام، من الشرق والغرب، ففتح نصفها عنوة والنصف الآخر صلحاً، فأجراها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صلحاً كلها، وذلك سنة ١٤ من الهجرة، ٦٣٦ م وقبل فتحها فتح خالد بن الوليد غوطتها - يا ضاحيتها - لما

جاء من العراق مددا لأهل الشام، وركز العقاب راية الرسول في أعلى الثنية ثنية العقاب التي يقال لها اليوم الثنايا، وهو الجبل الهرمي المشرف على شمال دمشق، وقاتل بني غسان يوم فصحهم فغلبهم على أمرهم.

وما كان الفاتحون بغرباء عن دمشق لصلاتهم التجارية بأهلها في الجاهلية وامتزاجهم بساداتها من الروم. وكان أبو سفيان بن حرب شيخ بني أمية كثيرا ما يرحل إليها، وقد زارها في الجاهلية بعض قواد العرب وخلقائهم، فعرفوا مداخلها ومخارجها وصادفوا من أهلها بعد الفتح موادعة، فعاملوهم معاملة ليس أحسن منها، ولما لحق الروم بعد سقوط دمشق بقومهم في آسيا الصغرى، وخلت بهزيمتهم بيوتهم أسكن المسلمون فيها بعض رجالهم وجعلوا في أسفلها الملمين وخصوا أعاليها بأنباء الذمة حتى لا يتأذوا بالمسلمين إذا نزلوا العاللي.

ولما هلك أمير دمشق يزيد بن أبي سفيان وسدت الإمارة إلى شقيقه معاوية، فتولاها عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة. وسدت إليه الخلافة بعد وفاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فوضع أساس ملك بني أمية، وكان على غاية التسامح. عهد بوزارة ماليته إلى سرجون بن منصور من نصارى دمشق ثم إلى ابنه من بعده، وكان بعض أطبائه من النصارى. وكان في جيشه الأنباط والجراجة والعجم وغيرهم من العناصر غير العربية وغير المسلمة. ثم تولى الخلافة ابنه يزيد بن معاوية ثم معاوية الصغير أياما قليلة، ثم مروان بن الحكم ثم ابنه عبد الملك، وتولى الخلافة الأموية في دمشق أربعة من أبناء عبد الملك فدعي لذلك بأبي الأملاك ومفتاح الخير، وهم سليمان بن عبد الملك والوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك، وتولاها منهم عمر بن

عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب لأمه، وضرب المثل بعدله وحسن سياسته. وكان آخرهم مروان بن محمد وهو من خيرة خلفائهم، ولكن قضت الأقدار أن تسقط على يده الخلافة. قال جستاف لويون: «أبان العرب عن تسامح مع كل مدن الشام، فرضي أهلها بسلطانهم، وطرحوا النصرانية وقبلوا دين الفاتحين وتعلموا لسانهم». وأصاب دمشق من عناية بني أمية ما أصبحت به عاصمة أعظم دولة، وبهمتهم وعبقريتهم امتد عمرانها، وذاق سكانها طعم العدل، وعرفوا الغنى والسؤدد وكانت دمشق بهم أعظم عواصم العالم وأجلها.

مدحهم شاعرهم الأخطل النصراني بقوله:

حشد على الحق عباق الخنا أنف إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

وكانت دمشق في أيام الأمويين كرومية في نظر أهل النصرانية. وما كانت قبلهم تعد في العواصم الكبرى. وللأمويين ابتكارات في الإدارة والسياسة لم ينسجوا فيها على منوال غيرهم. ولهم على العرب فضل لا ينسى على وجه الدهر، وهو أن أبا سفيان والد معاوية وجده حربا نقلنا من الحيرة الخط جزيرة العرب.

دمشق في عهد العباسيين

فتح عبد الله بن علي عم الخليفة العباسي السفاح مدينة دمشق سنة ١٣٢ هـ ووضع السيف في أهلها، واستصفى أموالها، ودخلت أباعر جيشه جامع بني أمية وظلت فيه سبعين يوما، وقتل من النصارى واليهود خلقا كثيرا من العلماء والأمراء. ونبشوا قبور بني أمية وأحرقوا جثثهم بالنار وذروها في

الهواء، ونقضوا أسوار البلدة حجرا حجرا. انتقم العباسيون من الأمويين أحيائهم وأمواتهم انتقاما فظيعا، وصفت لهم دمشق إلا أنهم لم يجعلوا فيها دار خلافتهم، وصيروها قسبة ولاية، فذهب ما كان لها من عظمة على العهد الأموي.

ومع هذا كان عظماء رجال بني العباس أمثال إبراهيم بن المهدي وعبد الله بن طاهر يتولون أمرها وأعظم من عطف عليها من خلفائهم الرشيد، وكان أميرا عليها قبل أن يلي الخلافة، وكذلك ابنه المأمون، كان يختلفان إليها ويعدلان في أهلها، حتى لقد ذكراهم بما كانوا يلقون من عدل بني أمية أيام سلطانهم.

وما خلت البلاد حتى في أيام عظماء العباسيين من دعاة يدعون إلى إرجاع الملك للأمويين، فوضعوا لذلك ملحمة بنوها على معرفة المستقبل، زعموا أنه يظهر رجل من بني أمية اسمه السفياي، فاعتقد الناس بظهوره، كما اعتقد أهل المغرب بالمهدي، وفي خلافة الأمين -والعباسيون يشتغلون بأنفسهم- ظهر هذا السفياي، اسمه علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية، وهو الملقب بالعميطر، وكان من أهل العلم والرواية فدعا إلى نفسه. وكان أصحابه يوم ادعى الخلافة يدورون في أسواق دمشق، ويقولون للناس: قوموا بايعوا مهدي الله. وكان يفتخر بقوله: (أنا ابن شخي صفيين) يعني عليا ومعاوية، لأنه كان ينتسب لنبي أمية من جهة أبيه، ولأل أبي طالب من أمه، وتعصب علي اليمانية وقاومه القيسية، فنهب دورهم وأحرقها، وقتلهم وفتك بأهل دمشق. وكان أصحابه يمرون بالدار فيقولون: ريح قيسي نشم من هذه الدار، فيضربونها بالنار، فهرب القيسية من دمشق، وكان من لم يبايعه سمر عليه بابه. ثم قام رجل آخر من الأمويين فنازع العميطر السلطة، فلقيت دمشق بسبب هذه الفتنة

شدة. وأعظم ما لقيت من تنازع قيس ويمن أو النزارية واليمانية، وبقى الاختلاف في الشام بين هذين الحين من العرب إلى العصر الأخير.

دمشق في عهد ملوك الطوائف

كان أول من اقتطع جزءا عظيما من جسم الخلافة العباسية أحمد بن طولون التركي، استولى على مصر نائبا عن أحد أمراء الأتراك في بغداد أولا، ثم صفت له أصالة واستولى على الشام، وكان حكمه فيها وفي الثغور ضئيلا، وسده إلى بعض العمال الذين ارتضاهم. ولما هلك ابن طولون، وكان أحسن سيرة من بعض المتأخرين من خلفاء العباسيين، خلفه ابنه مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ في الشام ومصر فأحسن هذا لأهل دمشق. ولما انقرضت دول الطولونيين سنة ٢٩٢ وقضى العباسيون على القرامطة الباطنية الذين جاءوا دمشق وأزعجوا أهلها منهم جزية عظيمة وأموالا كثيرة حتى يكفوا عن تخريب بلدهم - ظهرت الدول الإخشيدية دولة محمد بن طنج، فصادر الإخشيد أغنياء دمشق، واستصفى أموالهم.

وقد وجد بدار الإخشيد في مصر رقعة مكتوب عليها (قدرتم فأسأتم، وملكتم فبخلتم، ووسع عليكم فضيقتم، وأدرت عليكم الأرزاق فقطعتم أرزاق العباد، واغتررتهم بصفو أيامكم، ولم تفكروا في عواقبكم، واشتغلتم بالشهوات واغتنام اللذات، وتهاونتم بسهام الأسحار وهن صائبات، ولا سيما إن خرجت من قلوب قرحتموها، وأكباد أجمعتموها، وأجسام أعبرتموها، ولو تأملتم في هذا حق التأمل لانتبهتم. أو ما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل ما وصل إليها الجاهل؟ ولو دامت لمن مضى ما نالها من بقي، فكيف بصحبة ملك يكون في زوال ملكه فرج العالم، ومن المحال أن يموت المتظرون كلهم حتى لا

يبقى منهم أحد ويبقى المنتظر به. افعلوا ما شئتم فإننا صابرون، وجوروا فإننا بالله مستجيرون، وثقوا بقدرتكم وسلطانكم فإننا بالله واثقون، وهو حسبنا ونعم الوكيل).

قالوا إن الإخشيد بقي بعد هذه الرقعة في هواجس وسافر إلى دمشق فمات فيها سنة ٣٣٤. وفي السنة التي قبلها كان سيف الدولة بن حمدان استولى على حلب ودخل دمشق ودهش بغوطلتها فصرح بأنه سيستولى عليها جملة، فكت أهلها إلى المتغلب على مصر كافور الإخشيدي فبعث جيشا طرده عنها وضمها إلى مصر، فنجت دمشق من جشع سيف الدولة وتحكمه في أصحابها. وأذنت شمس الإخشيديين بالأفول سنة ٣٥٧ ولم تلق دمشق من دولتهم ودولة الطولونيين سوى راحة نسبية، ما خرجت عن حد ما كانت تلقاه في أدوار عظماء الخلفاء من بني العباس.

وجاءت دولة الفاطميين أو العبيديين فاستولت على هذه المدينة سنة ٣٥٩ وخطب علي منبرها للمعز الفاطمي الشيعي، وانقطعت خطبة بني العباس السنين، وعادت دمشق تسهد حظها يسود، والفتن فيها تتكاثر وتشتد. وكان من سياسة الفاطميين إلا يولوا الولاية مدة طويلة، وبذلك كان سوء الإدارة ماثلا في أيامهم، ومن ضعفهم أن يتولى أمر دمشق رجل كان ينقل التراب على الحمير اسمه قسام الحارثي من تلفتيتا في جبل قلمون، ولا تقدر الدولة على نزع السلطة منه وكانت أرسلت لحربه الأمير الأفضل فحاصر دمشق وضاق بأهلها الحال، ثم رضي القائد عن قسام وأعاد إليه حكم البلد.

واستولى الأحداث على دمشق فأرسل الفاطميون أحد قوادهم جيش بن الصمصامة فتلقاه أهلها خاضعين فأمتهم واستخص رؤساءهم، واستحجب

جماعة منهم، وكان يسيطر الطعام كل يوم لهم ولمن يجيء معهم من أصحابهم، وأمرهم ذات يوم إذا فرغوا من الطعام أن يحضروا إلى حجرة يغسلون أيديهم فيها، وأوعز إلى أصحابه إذا دخل رؤساء الأحداث الحجرة أن يغلقوا بابها ويضعوا السيف فيمن دخلها، فقتل من أصحابهم بهذه المكيدة نحو ثلاثة آلاف رجل، ثم قبض على الأشراف واستأصل أموالهم، وأتى على نعمهم ووظف على البلد خمسمائة ألف دينار.

ويغد سنين قليلة ثار بدمشق رجل من أهلها يعرف بالجزار، فاجتمع إليه جمع كثير من أحداثها، فقبضوا عليه وقتلوه، وأظهروا الطاعة للفاطميين، وذلك بعد أن اجتمع على الناس بدمشق الجوع والحريق والنهب والقتل. وفي سنة ٤٦١ وقع الخلف بين الدمشقيين والعسكرية فطرحت النار في جانب من المدينة فاحترقت، واتصلت بالجامع الأموي، وكانت دمشق في هذه الحقبة قد خربها أعراب البادية وأهل العيث والعيارون وانتقل أهلها إلى حمص. وهذا القرن من أشأم القرون على دمشق، فقد أصيبت في سنة ٤٦٧ بكارثة لم يسجل تاريخها أعظم منها، وذلك بانتشار الطاعون أولاً ثم عمت المجاعة البلاد من قابل، وفلم يبق من أهل دمشق سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد أن كانوا خمسمائة ألف كما قال المؤرخون، أفنأهم الغلاء والجلاء والوباء. وكان بها مائتان وأربعون خبازا فصار بها خبازان، وخلت الأسواق وأقمرت القصور والدور، ونعق البوم في البراري، والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادي عليها عشرة دنائير فلا يشتريها أحد، والدكان الذي كان يساوي ألف دينار ما يشتري بدينار، وأكلت الكلاب والسنائير والميتات، وأكل الناس لحم الآدميين. وهذا هو الطاعون الأسود الذي عم العالم وأصاب مصر ما أصاب الشام من فجائعه.

دمشق في عهد السلجوقيين

ساءت سيرة المعلى بن حيدرة أمير الفاطميين مع الجند والرعية في دمشق، فثار به العسكر وأعانهم العامة، فخربت في الفتنة دمشق وأعمالها، وجلا عنها أهلها، وهان عليهم مفارقة أما كنهم ويوتهم بما عانوه من ظلمه. قال المؤرخون: وختل الأماكن من قاطنيها، والغوطة من فلاحيتها، وغلّت الأسعار حتى أكل الناس بعضهم بعضا لانعدام الأقوات، فجاء أتسز من أمراء السلجوقيين واستولى على المدينة بالأمان، وأعاد إليها الخطبة العباسية سنة ٤٦٨، وانقضت أيام الفاطميين فيها. إلا أن أتسز لم يكن بالدمشقيين أرحم من المعلى. يضاف إلى المصيبة بالسلف والخلف أن رجاء الفاطميين لم ينقطع من استرجاع دمشق، فحاصروها غير مرة ورجعوا عنها خائبين، حتى قبض لها رجل عظيم من مماليك السلجوقيين اسمه طغتكين.

تولى طغتكين دمشق فأحسن السيرة واستمر في حكمها من سنة ٤٩٧ إلى سنة ٥٢٢ فأجبه الدمشقيون كثيرا لبعده عن الظلم، وإعادته إلى الناس أملاكهم التي اغتصبها منه ولأهالة الجور، وإحيائه الأراضي المعطلة، فباع منها ما كان شاغرا، وصرف ما حصل من ثمنها في الأجناد المرتبين للجهاد، فعمرت عدة ضياع، وأجريت عيون، وحسنت باياله دمشق وأعمالها، وانبسطت الرعية في عمارة الأملاك في باطن العاصمة وظاهرها، ولما مات اشتد حزنها عليه، ولم تبق محلة ولا سوق إلا والمآتم قائمة فيه عليه. وبحسن سياسته أوقف توغل الصليبيين في أحشاء البلاد، وقصر حكمهم على الساحل، وعقد بين المتخالفين من أمراء المسلمين في الديار الشامية صلوات الود، ومعاهدات عدم الاعتداء، وألف بين قلوبهم ليجتمعوا كلهم على حرب الصليبيين الذين كانوا وصلوا إلى

الأراضي الشامية سنة ٤٩٠هـ واستولوا على أنطاكية وعلى الساحل الشامي وبيت المقدس.

وعدوا من غلطات طغتكين أن سلم الباطنية الإسماعيلية قلعة بانياس لیسلطهم على الإفرنج، ويحول دون اعتداء هؤلاء على المسلمين، فقوي بهذه القلعة أمرهم، وخف بهرام داعيتهم من العراق، ودعا إلى مذهبه جهرة، فتبعه خلق من العوام والجهال والفلاحين، ووافقه الوزير المزدقاني وزير دمشق فعظم أمر بهرام بالشام، وملك عدة حصون، وكاتب الإفرنج لیسلم إليهم دمشق، وجعلوا موعدهم يوم الجمعة ليقتلوا المسلمين وهم في صلاتهم، فعلم صاحب دمشق بالأمر فقتل الوزير المزدقاني وأمر الناس فثاروا بالإسماعيلية فقتل منهم بدمشق بضعة آلاف، ولم يعترضوا لحرمهم وأموالهم، ووصل الإفرنج في الميعاد فيم يظفروا بشيء، فتبعهم المسلمون يضربون رقابهم فما نجا من جيشهم إلا القليل.

ولولا قيام طغتكين ذلك القيام المحمود لاستولى الصليبيون على دمشق وحلب، وكثيرا ما كانوا يغزون ربضهما، ولم تؤد دمشق للصليبيين غرامة على عهده، وظهرت بمظهر دولة قوية، وكان طغتكين كان مبشرا بالدولتين النورية والصلاحية اللتين جعلتا من دمشق عاصمتها، وكان لهما شأن وأي شأن في دفع عادية الصليبيين عن الأرض المقدسة، والقضاء على ذاك التذبذب الذي ظهر من الدولة الفاطمية، وكان بعض رجالها كاتب أهل الحملة الصليبية. وطغتكين هو الذي ضرب على أيدي صغار الأمراء في الشام ممن كان يهون على بعضهم الوقوع في سلطان الصليبيين على أن تبقى لهم أماراتهم الموهومة الضئيلة.

دمشق في عهد الدوابتين النورية والصلاحية

لم تر دمشق عزا بعد دولة الأمويين مثل العز الذي نالته على عهد الدولتين النورية والصلاحية. كان نور الدين محمود بن زنكي تركياً وخلفه صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو كردي. وكلاهما خدم العرب والإسلام خدمة جليلة لا ينساها التاريخ. وفي دولتيهما عمرت دمشق عمراناً عظيماً على اشتغال السلطانين برد الصليبيين عن الديار الشامية. وقوت هذه الكارثة العظيمة من متن الأمة، فانتظم شملها بالنظام المحكم، ووجهت وجهتها إلى هدفها الأسمى، وهو القضاء على الصليبيين. وكانت الأمة إذ ذاك على غاية الحماسة الدينية، حتى إن والدة شمس الملوك وافقت أرباب الدولة على قتل ابنها لما استصرخ الإفرنج لتسليمهم البلاد وكان جده طغتكين المثال الكامل في دفعهم عنها وقد وصلوا مرة إلى المرج الأخضر من ضواحي دمشق قيادة كونراد الألماني ولويس السابع الفرنسي وبودوين الثالث ملك القدس في جيش عظيم فهزمهم المسلمون شراً هزيمة ودفعوهم إلى الساحل.

أبطل نور الدين في دمشق المظالم والمغارم، ورفع الحيف عن الضعاف ووجه القوة إلى مقصد واحد، وفتح بعض البلاد التي كان أمراؤها ضعافاً في وطنيتهم. ولما استعان شاور وزير العاضد الفاطمي بالصليبيين على قتال جيش نور الدين بعث العاضد يستنجد بنور الدين. فجهز له حملة بقيادة أسد الدين شيركوه وقصد مصر سنة ٥٦٢ ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف، فاستنجد شاور بالإفرنج فساروا في أثر شيركوه إلى الصعيد فهزمهم، ثم ظهر التبليبل في السياسة الفاطمية وتولى صلاح الدين القيادة ففضى على دولتهم آخر الدهر، وصفت مصر والشام والجزيرة لنور الدين.

وكانت سيرة نور الدين كسيرة صحابة الرسول من التقشف والعفة عن أموال الرعية. أسقط كل ما يدخل في شبهة الحرام، وما أبقى من الجبايات سوى الخراج والجزية وما يحصل من قسمة الغلات، وكتب أكثر من ألف منشور بذلك، وأطلق المظالم وأسقط من دواوينه الضرائب والمكوس عن المسافرين، وسامح الرعايا بمئات الألوف من الدينانير. وكان يأخذ مال الفداء ويعمر به الجوامع والمارستانات، وأخذ من أحد ملوك الإفرنج وكان في أسره ثلاثمائة ألف دينار، وشرط عليه ألا يغير على بلاد الإسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وأخذ منه رهائن على ذلك، وبني بالمال المستشفى النوري بدمشق، ولما بلغ الملك الإفرنجي مأمنه هلك. ووقف نور الدين الأوقاف العظيمة على جوامع دمشق، وكان يبيع ما يصل إليه من الهدايا، وينفقه في عمارة المساجد المهجورة، وعمر المدارس والطرق والجسور ودور المرضى والبائسين والخانات والأبراج والرباطات، وبني المكاتب وأجرى عليها وعلى المعلمين فيه الجرايات الوافرة إلى غير ذلك.

أما خلفه صلاح الدين فقد كان مثله في حسن السيرة، وبعد المهمة، وجميل المفاداة، وكان له عطف خاص على الدمشقيين. ساعهم بمئات الألوف من الدينانير. على نحو ما فعل معلمه نور الدين وزين مدينتهم هو وآله وعتقاؤه وجواريه بالمدارس والرباطات والمساجد ولم ينسب إليه شيء منها. وكان يحب دمشق ويؤثر الإقامة فيها، ولما بنى له أحد عماله قصر الامه ولم رض أن ينزله لأنه ما كان يفكر في غير حرب الصليبيين، مات صلاح الدين بعد هذه الفتوح العظيمة ومنها مصر. ولم يخلف سوى جرم واحد من الذهب وسبعة وأربعين درهما، ولم يترك ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ولا شيئا من أنواع الأملاك، وكان يهب الأقاليم ويعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة،

ويفتح بابه للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد، ويجلس إليهم مجلسا عاما يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفعل ذلك سفرا وحضرا. قال سبط ابن الجوزي: ويقال إن صلاح الدين فتح ستين حصنا وزاد على نور الدين مصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس والساحل وبلاد الإفرنج وديار بكر، ولو عاش لفتح الدنيا شرقا وغربا.

وما كان أولاد صلاح الدين وحفدته، مع وقوع الخلف بينهم. بغافلين عن زحزحة الصليبيين من مصر والشام، ويولون دمشق عطفًا عظيمًا وقيّمون فيها المصانع والمرافق مقتفين أثر مؤسس دولتهم الأعظم، وعلى خطته جروا في الحرمة وحب الخير وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب عظيمًا بأخلاقه سار بسيرة أخيه صلاح الدين وكان مستشاره وأمينه. ولولا هذا الاختلاف الناجم بين الأسرة الأيوبية للنزاع على الملك لكانت دولتهم خير دولة قامت. ذلك لأن أصحابها كانوا عارفين بصناعة الملك، يحسنون حمل الناس على الجهاد، لإنقاذ بلادهم من العدو، وكان صغارهم وكبارهم على غاية التهذيب مثقفين بأدب الدين والدنيا، ولقد توصل الملك عادل بدهائه إلى أن كان يرشي نساء قواد الصليبيين بالجواهر والحلي الدمشقية فيخدمنه مقابل ذلك خدمات مهمة ويتجسسن له على قومهن. وكثيرا ما كان أمراء المسلمين يعمدون إلى مثل هذه الوسائط، وقد قدم أحد أمراء دمشق ذات يوم مائتين وخمسين ألف دينار لأحد أمراء الصليبيين فلما فحصها وجدها زيوفاء، ولكن كان السهم نفذ، وحصل الأمير المسلم على ما أهمه الوصلة غلبه من الصليبي، والحرب خدعة.

أوعز الملك العادل على الواعظ سبط ابن الجوزي مرة أن يبحث الناس على الجهاد، لما شاهد من فتور في العزائم والقهود عن الحرب، فأشار الواعظ أن

يقض النساء شعورهن لتستعمل في الأدوات اللازمة للحرب، ويعمل منها شكال وكرفسات. وصعد منبر جامع دمشق الأعظم وأمر بإحضار الشعور فحملت على الأعناق، وكانت ثلاثمائة شكال، فلما رآها الناس ضجوا وشهقوا بالبكاء، وتعاهدوا على أن يقصوا من شعور نسائهم مثلها، ثم سافروا للقاء العدو وما كفوا حتى وقع الصلح بين العادل والأعداء. وبهذا أثبت نساء دمشق في القران السادس من انطوت عليه أنفسهن من الوطنية، وأنهم لسن دون نساء بني أمية في القرن الأول يوم أتين مع جيش العرب لفتح دمشق، وكن يقاتلن في صفوف الرجال، ويتولين منهم ما تتولاه نساء أهل المدينت الحديثة في الحروب من طهي الطعام وغسل الثياب وتضميد الجراحات وتمريض المرضى.

دمشق في عهد المماليك

اشتد الخلاف بين أبناء العادل اشتداده من قبل بين أبناء أخيه صلاح الدين، وأهم ما كان من الأحداث أيم هذا الضعف مجيء الخوارزمية من الشرق يريدون الاستيلاء على الشام، فعاونهم بعض أمراء دمشق واشتد البلاء فيها وأحرقت عدة أحياء وقصور ومساجد وخانات، ودام حصارها خمسة أشهر، وهلك الخلق موتا وجوعا وقل الشيء وأكلوا الميتة وأبيعت الأملاك والأمتعة بالشيء اليسير، وأتت البلد بالموتى على الطرق. قال: المؤرخون: وجرى بدمشق أمور شنيعة بشعة جدا لم يتم عليها مثلها قط.

بويح الملك الظاهر بيبرس البندقداري ملكا على مصر والشام بعد أن قتل تورانشاه آخر الأيوبيين سنة ٦٤٧ ولقب الملك الظاهر، وهو رأس دولة المماليك البحرية. وجاء جماعة هولاء إلى دمشق بعد تخريبهم بغداد والقضاء على

الخلافة العباسية فيها سنة ٦٥٦. وفي السنة التالية خرب هولاء حلب وأوقع بها خمسة أيام حتى لم يبق بها أحد، وأنفذت دمشق مفاتيحها إلى هولاء لتأمين من شره، ومع هذا خرب سورها وما نجت من غائلته إلا بانهازم جيش التتر على عين جالوت شر هزيمة. وبعد حين وصل غازان من حفدة هولاء دمشق فبذل له أهلها مالا عظيما، وباستيلائه عليها خربت الدور والمساكن بظاهر دمشق، واستبيح ما لم يصبه الحريق من الأماكن، وأسر ألوفًا وقتل مئات في التعذيب على المال، ودام التتر أربعة أشهر على ذلك، فخربت بعض المدارس الكبرى ودار السعادة مقر نواب السلطنة وما حولها. وبعد مدة فتح بيغا أروس التتري دمشق ونهب ضياعها وقطع أشجارها وجرى على أهلها من عسكره ما لم يجر من عسكر غازان.

كان ملوك المماليك أجناسا، منهم الكفاة وبعضهم دون ما يجب من الكفاءة السياسية، فاتسع المجال في عد الضعاف للواغليين من الشرق فعمسوا أهل هذه المدينة. وما لقت من جنكيز وهولاء وغازان من المصائب زاد أضعافا بضعف الدولة القائمة فلما وفاها تيمورلنك أنساها ما لقيت منه ما كان حل بها في القرنين الماضيين من أجداده التتر، فإنه ضرب عليها غرامة عظيمة كان مقدارها ألف ألف دينار، ولما استوفاهما دخلها أمراؤه فحل بأهلها البلاء تسعة عشر يوما هلك من ساكنيها خلال ذلك ألوف التعذيب والجوع، وسبوا النساء وساقوا الأطفال والرجال، ثم طرحوا النار في المنازل والقصور والجوامع والمدارس، فعم الحريق في يوم عاصف جميع البلد ولم يبق غير جدران جامعها، وحرقت في هذه الفتنة معظم خزائن الكتب التي كانت زينة المدارس. وأكد رجل من باقاريا اسمه جوهان شيلتبرجه كان جنديا من الأرقاء في جيش تيمور

أن ثلاثين ألف إنسان بينهم النساء والأطفال قد اختبئوا في المسجد الجامع فهلكوا لما سرت إليه النار.

قال ابن تغري بردي: ولقد ترك المصريون دمشق أكلة لثيمور وكانت يوم ذاك أحسن مدن الدنيا وأعمارها وكان يرجى بعد تلك الفتنة المشؤمة سنة ٨٠٣ أن تتنفس هذه المدينة الصعداء، ويبد أن أمراءها ما كفوا عن مظالمهم، وظلوا يصادرون كل من يعتقدون أن لديه مالا. وانتشر فيها الطاعون سنة ٨١٤ فأحصى من مات من سكانها خاصة فكانوا نحواً من خمسين ألف وخلت عدة قرى من السكان وبقيت الزروع قائمة لا تجد من يحصدتها، وأشبه هذا الوباء وبناء سنة ٨٩٧ وكان يموت فيه كل يوم ثلاث آلاف إنسان. والأوبئة والمجاعات والزلازل والقحط ليست أكثر بلاء على هذا البلد من جبايرة الملوك المفسدين من الفاتحين، فإن تيمورلنك مثلاً أخذ من دمشق جميع صناعاتها ومفنتيها وعلماؤها وقرائها، ونهب آثارها النفيسة ثم أحرقها، ولم تأخذها بها وبأهلها شفقة.

وجاء ملوك عظام من المماليك البحرية والبرجية اهتموا لسعادة دمشق وفي مقدمتهم الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وبيبرس الجاشنكير وقايتباي وبرسباي، وجاء أيضاً منهم صغار بعقولهم وبأعمارهم، ومع هذا وفقت دولتهم إلى إخراج بقايا الصليبيين من ساحل دمشق فخفف عنها الضغط الذي دام نحو مائتي سنة مشفوعاً بغارات التتر من الشرق.

دمشق في عهد العثمانية

استولى السلطان سليم الأول العثماني على دمشق سنة ٩٢٢ بعد وقعة مرج دابق التي قتل فيها قانصوه الغوري آخر ملوك المماليك. وكان سيلم جبارا سفاكا للدماء، قتل إخوته ويضعة من وزرائه.

ومن سوء حظ هذه العاصمة أن أرباب الرحمة من ملوك آل عثمان مضوا قبل استيلاء العثمانيين الأتراك على الشام ومصر. ولئن كانت هذه الديار بمعزل عن شئون الدولة السياسية في القسطنطينية دار الملك وشأنها شأن سائر الولايات العثمانية، فإن جهل الأتراك بالإدارة أذهب عن دمشق نضرتها التي كانت لها على عهد نور الدين وصلاح الدين مثالا. وكان يتحكم فيها المتوثبون على الملك وأرباب الإقطاعات، والدولة لا تهتم إلا لجباية أموالها من الرعايا، وقصاراها أن يخطب لها على المنابر، وتضرب السكة باسم ملوكها، وتراعي فيها الظواهر وتحس في أهلها الخضوع لما تأمر به ولم ينكر الدمشقيون على الأتراك القادمين سوى استرسال بعض رجالهم في الشهوات، ومجاهرتهم بالفسق وتعاطي الخمر، وضرب حكومتهم رسوما حتى على بيوت الدعارة. واستغربوا من الفاتح ورجال حملته أن يخلقوا لحاهم، وما كانت عيون الناس في بلاد العرب تألف غير اللحي تزين وجوه الرجال.

أما الجيش العثماني فكان دأبه الاعتداء على السكان، ينزلون بيوتهم بالقوة، ويعتدون على الأعراض ويقطعون الأشجار ويرعون الزرع ويوغلون في المنكرات والسلب والنهب.

ولما رحل السلطان سليم بعد فتحه مصر خلا الجو لنائبه جان بدري الغزالي فخرج عن الطاعة وباعه الأهلون بالسلطنة مكرهين وسمي نفسه بالملك الأشرف، وخطب له على المنابر، وزينت دمشق ثلاثة أيام، وأوقدت الشموع على الدكاكين. وضربت السكة باسمه، ثم أرسلت الدولة العثمانية جيشا قضى عليه، وكان هو من قبل قضى على حامية المدينة، وكانوا خمسة آلاف جندي من الانكشارية. وفي وقائعه خرب نحو ثلث دمشق من ضياع وأحياء وحات وأسواق وبيوت، وقلت من أهلها نحو سبعة آلاف، وهجم العسكر التركي على أحياء المدينة وربضها فكسروا الأبواب والحواصل والدكاكين، وآذوا النساء والأولاد، وكان النساء اجتمعن في مدرسة الحنابلة ومدرسة أبي عمر وغيرهما من مدارس الصالحة فهجموا عليهن وعروهن من ثيابهن، أخذوا من راقهم من النساء والغلمان. ويمكن حصر مصائب الدور العثماني الأول في ظلم الوالي إذا كان عاتيا مرتشيا، وظلم الجند في كل مكان نزله، وشقاء البلاد بأرباب النفوذ من أهلها.

ومن الولاة من لم يكن حد لظلمهم ولا لسرقاتهم، أمثال سنان باشا، كان يقتل ألوفا من الأبرياء ويعمر المساجد! فقد خلف من الذهب والجواهر والحلي والأحجار الكريمة ما عز وجود مثله في غير خزائن كبار الملوك المستبدين. هذا عدا ما أنفقه في بناء الجوامع والمداس والتكايا والخانات مما قدره مؤرخو الترك بمليون ليرة ذهباً بسكة زماننا.

وكانت الدول العثمانية تحشى ولايتها، ولذلك ما كانت تبقيهم في دمشق إلا أشهراً معدودة حتى لقد بلغ من تولاها منهم في قرن واحد من سنة ١٠٠٠ على سنة ١١٠٠ أحداً وثمانين والياً. وزاد في هذا الدور ظلم الانكشارية جيش

الدولة وكثر أذاهم، ويعيشون بأعراض الرعية وعروضها، ويستبيحون المدينة وقراها، ولا يكاد إنسان يأمن شرهم وعتوهم، وزادت فظائعهم لما أنشئت فرق جديدة من الجند، وبدت المنافسة بين العسكر القديم والعسكر الجديد، حتى أدت إلى أن يقتلوا في الشوارع، وإلى أن يتغلب أحد الفريقين المتقاتلين على القلعة، يقتل الأبرياء وتخرب بيوت وحوانيت، وتتعطل الأعمال أياما، وأقل ما كان ينهال أهل القرى من الظلم متى طولبوا بعوارض ستين أي بأموال عامين لحاجة الدولة أبدا على المال. فيرسل الوالي زبائنه من الجند يخربون المساكن ويقطعون الأشجار، وعادة قط الأشجار تأصلت في نفوس رجال الترك حتى أتوا في بعض الأقاليم على أشجارها كلها، فأصبحت بتكرار قطعها وإحراقها جرداء مرداء بعد أن كانت غابات غناء. وكان الجند إذا شتوا بدمشق وهم ألوف يلزمون أهل المدينة بأكلهم ومبيتهم. فإذا عزموا على السفر يأخذون من كل دار ترحيلة أي مبلغا من المال نفقة الطريق. وأصبح الأمر في بعض الأدوار على غاية الأخلوقة، فقد حدث أن خصص السلطان إبراهيم الخالع الماجن جباية إيالة الشام كلها لامراته السابعة، فكانت قرينة السلطان ترسل رجلا يجيئها باسمها.

وحدث بعض السنين أن أرسلت رجلا اسمه محمد أغا، وهو الذي نهض بعد مدة بالدولة باسم محمد باشا الكوبرلي الكبير. قال أبو الفاروق: ولا عجب فقد توجد الدررة النفيسة بين الكناسات والقمامات (راجع الجزء الثاني ص ٢٦٧ من كتاب "خطط الشام" من تأليفنا).

وفي العهد العثماني كانت الفتن بدمشق متصلة اتصال الشؤبوب، البلاد ساحة وغى على الدوام، وكذلك كانت الحال في الأقاليم: تتعطل الأسواق

والمعاملات بسبب الاضطرابات بين الانكشارية جيش الدولة والفرق الجندية الأخرى كالدالاتية والقبوقولي. وقد عطلت البلد سنة ١١٦١ هـ مرة ما يقرب من سنة، لا تقام جمعة، ولا يسمع أذان، ولا يفتح جامع، ولا يتمكن أحد من الخروج من منزله، وأغلقت دمشق دكاينها مرة تسعة أشهر احتاجا على مسائل آذتها، وكانت ذريعتها العظمى في إنكار ما يؤذيها إغلاق الحوانيت والمتاجر.

نعم انقلب عيش الدمشقيين في القرون الأخيرة من حكم العثمانيين عيشا رتبيا ليس فيه غير المغارم والمظالم، ونشوب الفتن فيها من الأمور الطبيعية، وذلك لضعف الحكومة وقلة بصيرة ولاة الأمر وفسادهم، وسرعة تبديل الولاية وسائر العمال، والقاعدة أن المناصب الكبرى لا تدوم لمتوليها أكثر من بضعة أشهر، ونادر من يتولاها سنة كاملة أو ستين، ومعظم العمال يتعاون مناصبهم من رجال الأستانة بالمال الوافر، والجند لأقل سبب يشعثون القرى ويأكلون مغلها، ويقتلون في أهلها. ومعنى تخريب قرى دمشق انقطاع مادة حياتها. وكاد الموت والحياة يتساويان في نظر الناس على عهد الترك لأن كل ما يدخرونه ينهب، وكل ما يعمرونه يخرب. وجاء الوالي أحمد باشا الجزائر يقتل في الأهلين ويعسفهم، وكثيرا ما كان يصادر الناس ثم يقتلهم، وطال حكمه في أوائل القرن الثاني عشر وهو يلقي الشغب بين الأهلين وينمي روح الفتن بينهم. حتى يتخذ القطر بزعمه من عسف المشايخ والأمرء. وكان جوره بالقياس إلى جور هؤلاء أقل وطأة، فحفظ المساواة بين الرعية، وكان يجبس علماء المسلمين كما يجبس قسيبي النصارى وحاخامي اليهود وعقال الدرود. ويصادر المسلمين كما صادر اليهود.

وأهم ما وقع في القرن التالي قتل أعيان دمشق الوالي سليم باشا، وكان قضى علي جيش الإنكشارية في الآستانة وهو صدر أعظم، فحاول قتل بعض أعيانهم وهو وال فبدءوه بالشر قبل أن يبدأهم، وجعلوا الحججة في إثارة العامة أنه يريد وضع ضريبة جديدة على البيوت والحوانيت فهاج الرعاع لذلك وقتلوه. ولولا أن اتفق في تلك السنة خروج محمد علي باشا والي مصر على الدولة، وإعداده حملة لفتح الشام، لجعلت الدولة عالي دمشق سافلها لما أصابها من الذل بمقتل واليها.

وشغلت دمشق بفتح إبراهيم باشا بن محمد علي باشا ونفس خناقها بالدولة الجديد، وقد رأى الدماشقة إدارتها أحسن من الإدارة في عهدها من العثمانيين، وكان من أول أعمال المصريين ترتيب المجالس الملكية والعسكرية وإقامة مجلس الشورى، وترتيب المالية ووضع نظام للحجاية، ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل. ومع هذا استنقل أرباب النفوذ والمشايخ ظل هذه الدولة، وودوا رجوع العثمانيين، ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء وتفتك بالآمنين والأبرياء.

أما إبراهيم باشا فمضى في إصلاحه وأبطل المصادرات، وقرر حق التملك، ووطد الأمن وأحيا الزراعة والصناعة وهياً الطرق لرواج التجارة، وبتشويقه عمت تربية دود الحرير ودود القز، واستخرجت بعض المعادن، فاستعادت بعض القرى عمرانها القديم ورخص الفاتح الجديد للأجانب في إرسال معتمديهم إلى دمشق، وكانوا قبله يمنعون من دخولها ودام حكمه في الشام تسع سنين، ومن دمشق خرج عائداً إلى مصر فبكاه الدمشقيون بكاء شديداً، على

شدته في تطبيق القوانين، وما عهد منهم أن ودعوا فاتحاً بها ودعوا به إبراهيم بن محمد علي الكبير.

مدح قنصل بريطانيا العظمى الإدارة المصرية في الشام بقوله: (لو طال الحكم المصري لاستعادت الشام قسماً عظيماً من وفرة سكانها القدماء وأصابت شطراً كبيراً من الثورة التي كانت في الماضي وآثارها لم تنزل ظاهرة للعيان في القرى والمدن العديدة، ولم يكد المصريون يطردون ويتقلص ظل سطوتهم وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد حتى عاد القوم إلى نبذ الطاعة خلفت الرشوة والتبذير في إدارة المالية النزاهة والاقتصاد، ومنيت المداخل بالنقص، واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان، فخلت القرى والمزارع المأهولة بالتدريج، حتى أمكن القول إنه لا يوجد ثم ظل للأمن على الحياة والأمل، وكل شيء يدعو إلى عودة الفوضى إلى الديار).

وأهم ما وقع في القرن حادثة النصارى المعروفة بحادثة الستين سنة ١٨٦٠م وخلاصتها قيام رعاك المسلمين والدروز على نصارى دمشق وقتلهم ونهبهم وإلقاء النار خمسة أيام في حيمهم حتى خرب كله. وكانت هذه المذابح بدأت من قبل في لبنان وهلك في دير القمر وزحلة ووادي التيم ألوف من النصارى بيد جيرانهم الدروز. جرى هذا في مدينة التسامح واللطف، فسود الأشقياء سمعة دمشق بعد أن عاش المواطنون قروناً في صفاء وولاء. وكانت بعض الدول الغربية يد في إثارة نفوس النصارى من جهة وإثارة الدروز من أخرى.

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الدولة هي التي دفعت الرعاك أو غضت الطرف عنهم فارتكبوا ما ارتكبوا، وكان والي دمشق لما رأى أهل زحلة يجمعون

جموعهم للغارة على الدروز أرسل إليهم وفدا من دمشق لينصح لهم بالعدول عن فتح باب الشر فقبل الدروز بمقترحه إلا أن الزحليين لم يقبلوا، وكان بعد ذلك ما كان من إثنان الدروز في جيرانهم النصارى في لبنان ووادي التيم، ثم سرت هذه الشرارة إلى دمشق وهلاك فيها من النصارى ٥٥٠٠ مسيحي وقلدز بعضهم عدد القتلى في لبنان ودمشق باثني عشر ألفا، وهو عدد مبالغ فيه. وأرسلت الدولة على الأثر أحد عظماء ورجالها فؤاد باشا لإطفاء الفتنة وإرضاء الدول العظمى حامية النصارى. في الشرق، فقتل من مسلمي دمشق ١١١ رجلا رشقا بالرصاص وصلب ٥٦ ونفى ١٤٥ وحكم بالأشغال الشاقة على ١٨٦ وكان في جملة من قتل ١٨ رجلا من كبار الأسر، وأرسل زهاء ألف رجل إلى المنفى والسجون خارج دمشق، وقتل الوالي أحمد باشا رميا بالرصاص قالوا لتساهله في الفتنة، والحقيقة أنه نفذ أوامر الآستانة فخافت الدولة شيوع الخبر فقتلته، بعد أن أخذ فؤاد باشا أوراقه. وأخذت الحكومة تجبي المال للتعويض على المنكوبين فجبت مئات الألوف من الليرات غرامة من أهل دمشق يبنون بها الحمي الذي أصبح طعام النار، وجندوا ثلاثة آلاف جندي، وجعلوا بدل الخدمة في الجندية من النقد مائتي ليرة ذهبية، وبلغت الخسائر مليوناً وربع مليون من الليرات.

وعاد من دانوا بالإسلام من النصارى كرها إلى دينهم الأصلي، وعوضت الدولة على المنكوبين من أموال الأهالي، ولم يصل إلى من أريدت معاونتهم مما جبي بهذا الاسم أكثر من الربع، وضاع الربع الثاني في النفقات، واختلس الربع الثالث عمال الحكومة، وأصاب صيارفة اليهود الربع الرابع. وكانت الخسارة عظيمة على الحكومة وعلى رعاياها من المسلمين والنصارى. وريحت الدولة من كل هذا تدليل الرعية وإخضاع الزعماء وأرباب المقاطعات. وخسرت

دمشق ألوفاً من البيوت المسيحية هاجرت من دمشق إلى بيروت وقبرص ومصر واستوطنوها استيطاناً قطعياً.

ولو لا أن مئات من أعيان دمشق وتجارها وغيرهم من أرباب الدين والمروءة فتحوا بيوتهم وصدورهم للحماية المسيحيين والمسيحيات لما بقي منهم ديار، لأن الأمر بعد أن خرج من يد الحكومة صار إلى أيدي الرعاع، والرعاع في العادة لا حد لتعديهم وإسرافهم. عمل المسلمون بما فرضه عليهم دينهم من حماية أهل الذمة، ولكن السياسة لعبت الأعبى بها، فعوقب حتى بعض من حمى مواطنيه، وأطعمهم وألبسهم وحنأ عليهم.

وكانت الدولة تحاول أن تمثل مثل هذه الفتنة في دمشق قبل نحو ربع قرن فلم تقع في أحبولتها، لأن الأمر رجع يومئذ إلى أرباب البصيرة والرأي. وذلك أن الدولة أرادت يوم ثورة المورة وجزائر البحر المتوسط سنة ١٢٤٤ هـ أن تقتل طائفة الروم الأرثوذكس في الشام انتقاماً منهم عما أتاه أبناء دينهم في اليونان من عصيان الدولة للوصول إلى استقلالهم، فأمرت الحكومة واليهما في دمشق أن يقتل أبناء طائفة الروم في إيالته، وكان الوالي عاقلاً على ما يظهر فأحال المسألة على مجلس دعا إليه الأعيان وأرباب الشأن عليهم أوامر الأستانة، فكان جوابهم: ليس عندنا مفسدون من النصارى، وجميعهم ذميون وعاملون بشروط الذمة لا تجوز أذيتهم، والرسول أوصانا بالذميين، نحن لا نقدر أن نتحمل تبعة قتلهم، وكتبوا محضراً بجميل سلوك النصارى الإيالة وحسن طاعتهم، وأنهم يؤدون الأموال الأميرية وأنهم يستحقون الرعاية والمرحة من السلطنة العثمانية. وبصنع أهل دمشق هذا نجا من القتل عشرات الألوف من النصارى. وهكذا كانت سياسة الدولة العثمانية مدة تزيد على أربعة

قرون، تضرب الغني بالفقير والموافق بالمخالف والطائع بالعاصي. وتفرق بين أجزاء قلوب رعاياها في بلد فيه عشرون مذهبا ودينا حتى تخلت عن هذه الديار في حرب سنة ١٩١٨ م.

دمشق في العهد الأخير

فتح الجيش الإنكليزي والجيش العربي مدينة دمشق أواخر الحرب العالمية وتولى الأمير فيصل بن الحسين حكمها بمعاونة البريطانيين، ووضع فيها أساس الحكومة العربية. ثم وقع الاتفاق بين الحلفاء على تقسيم الديار الشامية، فكانت فلسطين وعبر الأردن من حصة بريطانيا العظيمة، وسورية ولبنان من نصيب فرنسا. وبعد حين جعلت عصبة الأمم الإشراف على هذا القطر لكل من الدولتين المشار إليهما على هذه الصورة مع الاعتراف بأنه مستقل ويحتاج إلى من يدره على الحكم من الدول، وهذا ما سموه بالانتداب.

وفي عهد الأمير فيصل التأم مؤتمر من نواب الديار الشامية (فلسطين وشرق الأردن ولبنان سورية) في مدينة دمشق وقرروا فيه المناداة بالأمير فيصل ملكا على هذه البلاد، قلم يرق الحكومتين المتدبتين عمل المؤتمر على ما يظهر، وطلبت فرنسا دخول جيشها إلى الأرض السورية فمانعت حكومة فيصل، فدخل الجيش الفرنسي دمشق عنوة بعد وقعة طفيفة في قرية ميسلون مع قوة قليلة من الجيش العربي والمتحمسين من الأهلين وعهدت فرنسا بالحكم في سورية إلى رئيس سوري سمته تارة رئيس الوزراء وأخرى رئيس دولة وطورا رئيس مجلس المديرين، وجعلوا لكل وزارة ولكل ديوان كبير مستشارا فرنسيا، وتغلغل الفرنسيون في جميع فروع الإدارة، وتغلغل جيشهم المحتل في المراكز الحربية. وينا كانت المهمة منصرفة إلى تقرير الأمن وإصلاح آله الحكومة،

والقوم يهتثون بالراحة وقد نجا أولادهم من خدمة الجندية في الجيش التركي، وكان كل سنة يهلك منهم ألوف في هذه السبيل، وقد نجوا من الاشتطاط عليهم في أداء المغارم، نشبت الثورة في جبل دروز حوران، ولم تلبث أن سرت شرارتها إلى دمشق، فكانت ثورة مؤلمة في زمن تحتاج فيه البلاد إلى السلام، فخربت بمدافع الحامية أجمل قصور دمشق الأثرية وجزء غير قليل من أعظم بيوت حي الميدان وحوانيتها وحواصله ومستودعاته، وخربت عدة قرى في الغوطة، وهلك من الأهلين ألوف، وذهب من ثرواتهم مئات الألوف كانت جمعت في عشرات من السنين.

كان عمل فرنسا في التنظيم والإدارة والأمن حسنا في مجموعه، لكن سياستها كانت غير مستقرة على حالة واحدة، فكان الرؤساء الوطنيون ينصبون تارة بالتعيين وأخرى بالانتخاب، ينتخبهم مجلس له صورة المجلس النيابي، وبعد أخذ ورد طال أمرهما اختاروا الحكم الجمهوري، وجاء نواب الأمة إلى دمشق يجتمعون في دار الندوة أي البرلمان على نحو ما يجتمع العريقون في الحكم النيابي في الغرب. وإلى الآن تولى الأمر أربعة رؤساء جمهورية، اثنان منهم انتخبا انتخابا نظاميا في الجملة، إلا أنهما لم يكملا مدتهما، وثالث عينوه بمرسوم وقالوا إنه رئيس جمهورية، وربما كان هو أول رئيس جمهورية يعينه الغريب بأمر منه! والرابع من الرؤساء جري انتخابه على النحو الذي جرى عليه انتخاب الرئيسين الأولين. وكان ذلك بعد استيلاء البريطانيين على سورية ولبنان في سنة ١٩٤٠ لأسباب حربية، وقضوا على الفرنسيين الذي حافظوا على الطاعة لفرنسا الأم، وظلوا إلى الآن تحت الاحتلال الألماني، وأصبحت سورية ولبنان مستقلين بسحب العرف الدولي.

وأخذت المفاوضات بين البلدان العربية تدور حول تأليف وحدة من مصر والشام والعراق وجزيرة العرب، وإذا تمت هذه الأمنية التي تحرص على تحقيقها دمشق حرصا كبيرا تصبح العاصمة الثانية لهذه الوحدة بعد القاهرة لتوسطها بين الأقطار العربية.

عمران دمشق

لم تبق الأيام في دمشق من عادات الأمم البائدة قبل الإسلام سوى مصالح قليلة دائرة يستدل منها على مبلغ عنايتها بالعمران لا جرم أن الدولة الرومان التي طال عمرها في هذه الديار كان لها ممن تسخرهم من الأسرى والأرقاء في إنشاء مصانعها ما لم تكد تصل إليه دولة قبلها ولا بعدها. وعلى هذا الأساس كان حالها في كل قطر استصفته وكل بلد نزلته. ومن آثارها هنا الشارع الأعظم ويدعى المستقيم، كان ممتدا من الباب الشرقي إلى باب الجابية، أي من الشرق إلى الغرب وطوله ١٦٠٠ متر وفيه طريق للركبان وآخر للمشاة، وقد طمر اليوم بما قام عليه من الأنقاض العظيمة، وما برحت بعض عمدته مدفونة على أمتار من سطح الأرض تعلوها الدور والحوانيت، ولا يظهر منه إلا الباب الشمالي من الباب الشرقي وقسم من الباب الأوسط الكبير. أما باب الجابية فبقي جزء صغير منه.

ومن أعظم آثار الرومان اثنان وخمسون حصنا وقلعة أقاموها بين دمشق وتدمر إلى الفرات لتقف حاميتها على الدوام دون تسرب أهل البادية إلى المعمور من دمشق وأرباضها. وكذلك ما شادوه من حصون على الطريق الممتد بين بصري قسبة إقليم حوران ودمشق عاصمة القطر الشامي ليأمنوا عيث البادية أيضا.

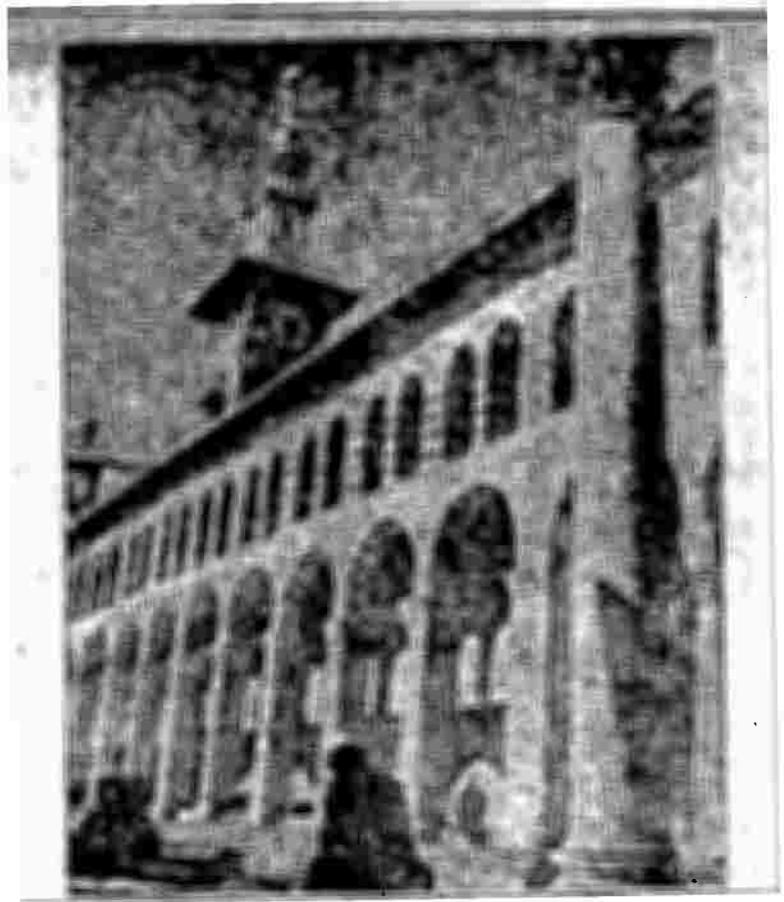
ومن آثار الرومان قلعة دمشق في غربها سماها العرب «الأسد الرابض» وتعاورها بعض الفاتحين الترميم في أدوار كثيرة، ولا تزال بعض جدرانها قائمة، وأكثرها خراب، وقد اتخذها كثير من ملوك الطوائف ونور الدين

وأخلافه دار إمارة، وجاءت بعض العصور وهي أشبه بمدينة فيها جميع المرافق وأقيم فيها جامع بخطبة. ومن آثار القدماء سنور البلد وهذا أيضا جار عليه الدهر فنقض مرات ورمم مرات في الدول الإسلامية. وهناك بقايا أنقاض بيعة اسمها كنيسة حنائيا يرد عهد بنائها إلى القرن الرابع للمسيح، إلى غير ذلك. من الأحجار والتماثيل المهشمة وقليل منها السالم، وقدم رم العرب بعض ماعور من المصانع القديمة، وما أفرطوا في تشييد البناء العظيم لأن الإسلام حظر السخرة، وعاديات القدماء كانت من عمل الرقيق والأسرى، وربما اختار العرب لأول أمرهم البناء بالمدر أي بالطين والطين، ثم تحول البناء إلى الحجر في بعض السنين، وكانوا يؤثرون البناء بالطين والخشب؛ لأنه أدنى إلى السلامة عند حدوث الزلازل من أبنية الحجر.

بني معاوية قصر الإمارة جنوب المسجد الأموي، وسمي بالخضراء لقبة خضراء قامت عليه. قيل إنه أنفق عليه ثمانية عشر حملا من الذهب، وبني الأمويون بيوتهم في جوار الجامع، وكان لمعظمهم قصور في الغوطة، ومنهم من كان يؤثر نزول البادية لئلا يخجل أبناءهم بعش الحضارة.

وجاء الخليفة الوليد بن عبد الملك وكان مولعا بالعمران فبني الجامع الأموي، وصالح النصارى على النصف الذي كان أبقاه لهم الفاتحون، وعرضهم عن نصفه أربعين ألف دينار. وكان بدمشق خمس عشرة كنيسة للنصارى صولحوا عليها. قال المؤرخون: وهدم المسلمون واليهود جميع ما جددت النصارى في تربيح الجامع الأموي من المذابح والأبنية والحنايا، حتى بقي عرصة مربعة، ثم شرع بينائه بفكرة جيدة على الصفة الحسنة الأنيقة التي لم يشهد قبلها مثلها.

وذكر المؤرخون أن الوليد أتى الصناع والمهندسين من الروم أي من الروم الوطنيين وبناه على أعمدة من الرخام طبقتين، الطبقة التحتانية أعمدة كبار، والتي فوقها صغار، في خلالها صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا معمولة بالفسيفساء بالذهب والخضرة والصفرة. وكان ابتداء عمارته في أواخر سنة ست وثمانين، وتكامل في عشر سنين. وقبل أن يكون بيعة للنصارى كان معبدا للصابئة والكلدان والسريان واليهود.



الجامع الأموي

وكان طول الحرم الأصلي من الشرق إلى الغرب ١٣٠٠ قدم وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١٠٠٠ قدم، فهو ربع مساحة دمشق في تلك الأيام، أنفق الوليد على تشييده وتزيينه خراج الشام سنتين وقيل أكثر من ذلك، وكان خراجها ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار كل سنة، فجاء أجمل جامع في الإسلام يليق بعاصمة الخلافة الإسلامية. وبقي على جماله إلى سنة ٤٦١ هـ أيام ذهبت محاسنه في الحريق الذي وقع في دولة الفاطميين وقد حرق ست مرات في عصور مختلفة، وكان آخر حريق أصابه في سنة ١٣١٠ هـ فأعيد إلى ما كان عليه كما كان يعاد في كل حريق، وأصيب غير مرة بزلازل فتفطرت بعض أركانه وشراريفه ومآذنه الثلاث.

ولنابغة بني شيبان في الوليد باني الجامع الأموي من قصيدة مدحه بها ويصف بدائع هذا الجامع:

قلعت بيعتهم عن جوف مسجدنا	فصخرها عن جديد الأرض منسوف
كانت إذا قام أهل الدين فابتهلوا	باتت تجاوبنا فيها الأساقيف
أصوات عجم إذا قاموا بقربتهم	كما تصوت في الصبح والخطاطيف
فاليوم فيه صلاة الحق ظاهرة	وصادق من كتاب الله معروف
فيه الزبرجد والياقوت مؤتلق	والكلس والذهب العقيان مرصوف
ترى تماويله من نحو قبلتنا	يلوح فيه من الألوان تفويف
يكاد يعشى بصير القوم زبرجه	حتى كأن سواد العين مطروف
وفضة تعجب الرائين بهجتها	كريمها فوق أعلاهن معطوف
وقبة لا تكاد الطير تبلغها	أعلى محاريبها بالساج مسقوف
لها مصابيح فيها الزيت من ذهب	يضيء من نورها (لبنان) و(السيف)

فكل إقباله والله زينه
 في سرة الأرض مشدود جوانبه
 فيه المثاني وآيات مفصلة
 مبطن برخام (الشام) محفوف
 وقد أحاط بها الأنهار والريف
 فيهن من ربنا وعد وتخوف

ووصفت ابن منقذ الكناني هذا الجامع بقوله:

وكان جامعها البديع بناؤه
 ذو قبة رفعت فضاهت قلة
 تبدو الأهلة في أعاليها كما
 ويربك سقفا بالرصاص مدثرا
 قد ألف الأقوام بين شكوله
 لم يرض تجليلا بجص فانبرى
 يعشى سوام اللحظ في أرجائه
 فإذا تذر الشمس فيه تخاله
 فكانت محرابه من سندس
 وتخال طاقات الزجاج إذا بدت
 تبدو القباب بصحنه لك مثلما
 وعلت به فوارة من فضة
 وبيابه حركات ساعات إذا
 ملك يميز من المساجد جحفلا
 ومنابر بنيت فحاكت معقلا
 يبدو الهلال تعاليا وتمهلا
 يعلو جدارا بالرخام مزملا
 فغدا الرخام بذاته متشكلا
 بالفص يعلو والنضار مجللا
 عن عسجد أرضا ومن فص حلا
 برقاً تآلق أو حريقاً مشعلا
 أو لؤلؤ وزمرد قد فصلا
 من للحظك عبقرية مسدلا
 تبدو العرائس بالحلي لتجتلي
 سالت فظنوها معينا سلسلا
 فتحت لها باب تراجع مقفلا

وفي أيام الوليد كان الناس يتكلمون في البنايات والعمائر لزيادة رغبته في البناء، فبنت الناس المجالس الحسان عملا بسنة الخليفة، وهو الذي عمر الضياع وحفر الآبار وأقام المنارات في الطرق وهدم المساجد القديمة وزاد فيها

وشيد دور المرضى. وكان إذا ازدادت أموال الجباية ولم يجد أحدا يقبل الصدقات يبني بها المساجد. وشيد من جاء بعده. الفنادق ودور الضيافة والخانات وكل ما يسهل العيش ويجلب الراحة.

وظل الدمشقيون يسرون على خطة خليفتهم الوليد في عمارة بلدهم في القرون التالية لم ينزع منهم هذا الغرام، حتى قال بعض المؤرخين إن للدمشقيين في ظاهر مدينتهم وداخلها من القصور الجمالية ما يدل على شدة ولعهم بإتقان مصانعهم والحرص على آثارهم، وهذه الخلة مشاهدة فيهم إلى اليوم، وعندهم أن من النقص في صاحب السعة ألا يملك دارا قوراء منجدة بالفرش الجيد، مستجمعة أسباب الراحة والنعيم.

عمرت دمشق في العهد الأموي عمراننا ما عهدت مثله في القرون الغابرة ولا في القرون اللاحقة، فأبقى كل واحد من خلفاء بني أمية أثرا فيها، مع أن ملكهم لم يدم أكثر من ألف شهر. وجاء العباسيون فكان بعض المتقدمين من خلفائهم كالرشيد والمأمون يختلفون إليها، كما قال ابن عساكر، طلبا للصحة وحسن المنظر. فقد أقام بها المأمون وأجرى إليها قناة من نهر منين إلى معسكره بدير مران، وبنى القبة في أعلى الجبل وصيرها مرقبا يوقد في أعلاها النار لكي ينظر إلى ما في معسكره. وصارت هذه القباب بعد ذلك للإعلام بحركات العدو، وأقام أيضا مرصدا فلكيا في الجبل.

ومن أهم القصور القديمة القصر الذي بناه المأمون بين دمشق ودارينا، ولا يعرف اليوم محله، وفيه نزل المتوكل العباسي لما نقل دواوين الخلافة من بغداد إلى دمشق. وكان المأمون معجبا بما ترك الأمويون من الآثار. ولا سيما جامعهم. قال صاحب الأغاني إن المأمون دخل دمشق فطاف فيها وجعل يطوف على

قصور بني أمية ويتبع آثارهم، فدخل صحنًا من صحنهم فإذا هو مفروش بالرخام الأخضر كله، وفيه بركة يدخلها الماء ويخرج منها من عين تصب إليها، وفي البركة سمك وبين يديها بستان على أربعة زوايا سروات كأنها قصت بمقراض من التفافها.

كانت صورة دمشق على شكل مربع الأضلاع مستطيل ولها ثمانية أبواب. وربما زاد عدد الأبواب في بعض العصور وردمت بعض الأبواب الأخرى. وأحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق منذ قال:

دمشق	في	أوصافها	جنة	خلد	راضية
أما	ترى	أبوابها	قد	جعلت	ثمانية

وكانت متاجر المدينة وأسواقها داخل السور، والبناء في ربضها يكثر ويقل تبعًا للأمن وقوة السلطان. فقد كانت في القرن السادس أحياء العقبية والشاغور والمزاز وقبر عاتكة والشويكة والقنوات وسويقة صاروجا (سوق ساروجا) والعنابة من الأحياء الخارجة عن السور، ثم اتصلت بالمدينة كما اتصل ميدان الحصا بها، وكان الميدان قرية في الجنوب تربطها بالمدينة تلك الجادة العظمى من باب الجابية إلى باب مصر أو بوابة الله.

وكان الشرف الأعلى والأدنى في غربي المدينة عامرين بقصور الأغنياء ورجال الدولة، وفيها المدارس الحسان والمساجد والأسواق إلى القرن التاسع، فسطا عليها الخراب. وكذلك كان شأن محلة العنابة فإنها خربت حوالي ذلك العصر. وعمرت الصالحية في سفح قاسيون من الشمال في القرن الخامس والسادس حتى أصبحت بمدارسها وجوامعها وأسواقها وخاناتها مدينة برأسها، ثم تحيفها الخراب في العصور التالية، ونهضت قليلا في العصر

الحديث. فالعمران كان يمتد إلى الجنوب وإلى الشمال وإلى الغرب، وربما حال دون امتداده إلى الشرق وجود محلي النصارى واليهود في ذاك السمّت.

وجاء زمن والعمران متصل بدمشق من الغرب إلى الربوة، وكانت هذه عامرة أشبه ببلدة صغيرة فيها مدارس وجوامع وأسواق ومقاصف وحمامات، وفيها قصور الأغنياء وإلى جنبها قصر الفقراء الذي بناه نور الدين محمود بن زنكي ليصطافوا فيه كما يصطاف السراة، ووقف عليه قرية داريا من أعظم قرى الغوطة، وفي ذلك يقول الوداعي:

إن نور الدين لما رأى في البساتين قصور الأغنياء
عمر الربوة قصراً شاهقاً نزهة مطلقة للفقراء

وحرق قصر الأمانة في فتنة الفاطميين فبقيت دمشق بدون دار أمانة، ولما ملكها تاج الدولة تتش في سنة ٤٧١ بنى دار الأمانة في القلعة وزاد فيها شمس الملوك ذقاق وأنشأ بابين للقلعة مع دار المسرة فيها والحمام المحدث على صيغة اخترعها، وبنية اقترعها، وصفة أثرها.

ولا أثر لما بناه جعفر بن فلاح لما فتح دمشق للفاطميين سنة ٣٥٨، وكان نزل بظاهر سور دمشق فوق نهر يزيد، وأقام أصحابه هناك الأسواق والمساكن، وصارت شبه مدينة، واتخذ لنفسه قصراً عجيباً من الحجارة وجعله عظيماً شاهقاً في الهواء، غريب البناء، وهذا القصر من المفقود، كما أنه لا أثر لما بناه الأشرف بن العادل من القصور والمنتزهات الحسنة في القرن السادس. ولم يبق أثر لقصور السكسكي التي كانت بهجة الأنظار في القرن الثالث في إقليم بيت لها على نحو ميل من شمالي دمشق، وكانت في أملاكه هناك عدة قصور مبنية بالحجارة والخشب الصنوبر والعرعر، في كل قصر منها بستان ونهر يسقيه،

وكان كل جليل يقدم من الخضرة أي من بغداد، أو من مصر يريد الخضرة ينزل عنده في قصره. وما خلا عصر من مثل هذه القصور يقيمها أهل اليسار من التجار وغيرهم أو رجال الدولة وأصحاب الوجاهة. وفي العصور الحديثة شيدت قصور كثيرة في المدينة وريضها ومنها ما أنفق عليه من أموال مغنوية فخربت بعد قليل، (والحجر المغصوب في البناء أساس الخراب) كما قيل. وكان في الصالحية محل يسمى القصر عمره أبو البقاء الصفوري سنة ١٠٣٥هـ وكان يقال له صاحب القصر، ولا يعرف هذا القصر ولا القصر الذي كان في الصالحية أيضا لحسين بن قرنق وعمره في سنة ١٠٧٧هـ وكان يضرب المثل بقاعته. وكان ابن قرنق صدر دمشق عمر الأماكن البهية ومن جملتها هذا القصر.

ومن أجمل أمثلة البناء الجميل الباقي أكثره دار أسعد باشا العظم في جوار جامع بني أمية انتهت عمارتها سنة ١١٧٤هـ وهي مثال من هندسة الدور في العهد الأخير، اشترتها حكومة فرنسا من ورثتها وجعلتها معهدا للدراسات العلمية، وقد حرقت في ثورة سنة ١٩٢٥ قاعتها وكانت أجمل ما حوت تلك الدار.

وفي القرن الخامس دخل دمشق طراز من دور العلم سموه بالمدرسة. وأول مدرسة أنشئت للقرآن في سنة ٤٤٤ أنشأها رشأ بن نظيف المقرئ الدمشقي. وكثرت بعد ذلك دور القرآن ودور الحديث ومدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة والزوايا والرباطات، أنشأها الملوك وأتباعهم من الأمراء والعقلاء والجواري وبعض أهل الخير من التجار والأغنياء. وختم تاريخ المدارس بانقراض ملوك الطوائف ودخول الدولة العثمانية.

ذكر صاحب كتاب المدارس وهو عما ألف بعد خمس سنين من دخول
العثمانيين أن في دمشق ٧ دور للقرآن، ١٨ دار للحديث و ٥٧ مدرسة للشافعية
و ٥١ مدرسة للحنفية و ٤ مدارس للمالكية و ١٠ مدارس للحنابلة. وكان بها
أربع مدارس للطب ومدرسة للهندسة، وفي دمشق وصالحيتها ٢٦ خانقا و ٢٣
رباطا و ٢٦ زاوية. وجميع هذه المدارس والرابطات خربت على عهد العثمانيين،
ولما غادروا دمشق ما كان فيها من تلك المعاهد سوى بضع مدارس أكثرها
خراب، سطا عليها أهل الجوار أو باعها أكلة الأوقاف. وكانت هذه المدارس
مدة قرون أشبه بكلية لمدرسة جامعة كبرى، تدرس فيها بعض علوم القدماء
إلى جانب علوم الدين واللغة ومنها خرج أعظم الملة، وكانت من أجل
الأدوات في إخراج المسلمين من الأمية، تتعاور هذه الواجب مع الجوامع
والكتاتيب التي يقفها أهل الخير لتعليم اليتامى والفقراء القرآن والحفظ، وتكون
على الأغلب على أبواب الجوامع أو على مقربة منها ليألف الصغار الصلاة منذ
نعومة أظفارهم.

ولابن منقذ الكناني في المدارس:

ومدارس لم تأتيا في مشكل	إلا وجدت فتى يحل المشكلا
ما أمها مرء يكابد حيرة	وخصاصة إلا اهتدى وتمولا
وبها وقوف لا يزال مغلها	يستنقذ الأسرى ويغني العيلا
وأئمة تلقي الدروس وسادة	تشفي النفوس وداؤها قد أعضلا
ومعاشر تحذوا الصنائع مكسبا	وأفاضل حفظوا العلوم تجملا

ومن القصور التي كان يقصدها الزائرون من الأقطار قصر الأبلق غربي
دمشق، وهو قصر عظيم بني من أسفله إلى أعلاه بالحجر الأسود والأصفر

بإحكام عجيب، بناه الظاهر بيبرس (٦٦٨) قالوا وكان من عجائب الدنيا، فرش بالرخام البديع الحسن المؤزر بالرخام المفصل بالصدق والبص المذهب إلى ستجف السقف، وكان على واجهته الشرقية مائة أسد وعلى الشمالية اثنا عشر أسدا منزلة صورها بأبيض في أسود. والأسد شعار (رنك) الملك الظاهر.

وعلى مثال قصر الأبلق بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الأبق بقلعة الجبل بالقاهرة. وبقي أبلق دمشق عامر إلى دخول العثمانيين، وهو من عمل إبراهيم بن غنائم المهندس مثل المدرسة الظاهرية الباقية إلى اليوم، واسم هذا المهندس العظيم ما برح منقورا في الحجر في زاوية باب الظاهرية على يسار الداخل إليها.

كثرت الجوامع والمساجد في الدولتين النورية والصلاحية وزاد عمران هذه المدينة في القرن السادس، وفيه كانت كما قال الرحالة ابن جبير أكثر مدن الأرض سكانا. يضاف هذا إلى ما كان لها من الغنى المائل في مصانعها ومساكنها وجوامعها ومدارسها. ذهب كل هذه في فتن الفاتحين المخربين ولم يبق منه إلا بعضه وهو على تشعبه وخرابه يدل على ذلك العز الذي كان لدمشق.

ولقد اشتهرت دمشق بحماماتها لتدفق المياه عليها من كل صوب، واشتهرت حماماتها بأناقة بنائها وحسن نظافتها، وفي حماماتها المحدثه في القرن العاشر وما بعد مقاصير من القاشاني البديع، وآخر ما دثر منها حمام القيشاني وحمام الخياطين. وكان في دمشق في القرن التاسع مائة حمام وأربعة وستون خانانا وأهم خاناتها القديمة اليوم خان أسعد باشا وخان سليمان باشا وخان الحرير.

وعمر السلطان سليم لما فتح دمشق سورا وأبراجا من قرية القابون شمالا إلى آخر المدينة جنوبا، وجعل في ذلك السور أبوابا تغلق على المدينة، وعمر جامعا ومدفنا على قبر محيي الدين ابن عربي بالصالحية ومدرسة قرب المدرسة السلبيانية التي بناها ابنه السلطان سليمان القانوني مكان القصر الأبلق في المرج الأخضر.

اشتهرت دور دمشق بأن داخلها حوى الجمال برمته وخارجها لا ينبئ عن شيء كثير. وهذا يوم كان جل الاعتماد في البنيان على الطين والخشب يوم قال فيها البحري:

وتأملت أن تظل ركابي بين لبنان طلعا والسنير

مشرفات على دمشق وقد أعرض منها بياض تلك القصور.

والبيت الدمشقي في العادة عبارة عن صحن أو فناء فسيح في وسط حوض ماء يتدفق إليه من أنوب أو فوارة لا تنقطع جريتها، وقد غرست من الرياحين والأشجار المثمرة كل جميل وعطر، وعلى جوانب هذا الصحن المخادع والغرف والقاعات، وفي القاعة بركة ماء أيضا، وربما جرت على قامة في الجدار لتزيد في رطوبة المحل في الصيف، وفي الطبقة الثانية العلالية وهي خاصة بالشتاء على الأغلب. فبيوت دمشق القديمة حوت جميع المرافق ومنها الحديقة والأشجار والمياه. والغالب أن الزلازل في الدهر السالف دعت الأهلين ألا يستخدموا الحجر في بنائهم إلا نادرا، أما اليوم فالمعمول عليه في البناء الحجر والأسمنت المسلح والآجر والقرميد.

لكن الطراز القديم في البناء أقرب إلى حفظ الحرارة واتقاء البرد من الطراز الحديث، وأبان ابن منقذ الكناني عن هذا العمران بقوله:

وإذا مررت على المنازل معرضا عنها قضى لك حسنها أن تقبلا
 إن كنت لا تستطيع أن تتمثل الـ فردوس فأنظرها تكن متمثلا
 وإذا عنان اللحظ أطلقه الفتى لم يلق إلا جنة أو جدولا
 أو روضة أو غيضة أو قبة أو بركة أو ربوة أو هيكلأ
 أو واديا أو ناديا أو ملعبا أو مذنبا أو مجدلا أو موثلا
 أو شارعا يزهو بربع قد غدا فيه الرخام مجزعا ومفصلا

اشتهرت دمشق بأديارها قبل الإسلام، ومن أعظمها دير مران في السفح الغربي من قاسيون، كان مطلا على مزارع الزعفران، وقد ظل عامرا إلى القرن السابع، وقال فيه الشعراء من القصائد والمقاطع كل مرقص، وكان مقصد الخلفاء والأمراء وأرباب اللهو والقصف وعشاق الطبيعة. وكان بالسفح في محلة الصالحية أكثر من دير تطل كلها على المدينة وغوتطها، وفيها أشجار السرو، ولا نعلم في أي قرن دثرت، كما أنا نجهل الزمن الذي دثرت فيه أديار الغوطة. أما كنائس دمشق اليوم فكلها محدثة جددت بعد حوادث سنة ١٨٦٠ وليس فيها من الجمال ما كان للبيع القديمة، وللقديم أبدا روعة ليس للجديدة.

ومن أجمل ما أبقّت الأيام عليه من البناء الفائق مهندسته المستشفى النوري المعروف بالمارستان داخل المدينة، والمستشفى القيمري في السفح، فإن واجهتهما وواجهة المدرسة الظاهرية من أجمل ما سلم من العاديات. قال رحالة كبير قديما إن هذين المستشفىين من مفاخر الإسلام. وقد جرى مؤخرا ترميم واجهتهما ترميما خفيفا وأعيد إلى النحو الذي كانا عليه، كما رمت عدة

جوامع ومآذن وقبور فعاد إليها بعض رونقها القديم، ورمت واجهة المدرسة الظاهرية، وفيها دفن الملك الظاهر وابنه الملك السعيد.

وفي الظاهرية دار الكتب الوطنية وهي قبالة العادلية أعظم مدارس الشافعية، حرق ثلثها وحرقت خزانة كتبها في فتنة تيمورلنك، واستصفى أهل الجوار جزءا منها بعد حين والباقي منها متعة الأنظار، وهي اليوم دار المجمع العلمي العربي، وفيها خزانة كتبه ومكتبه وردهة محاضراته. ومن آثار الظاهر بيبرس عدا المدرسة المنسوبة لاسمه، وعدا القصر الأبلق الدائر، ما جده من شراريف رءوس قلعة دمشق ورءوس أبراجها، وبنى الطارمة التي كانت على سوق الخيل، وبنى حماما خارج باب النصر. وجدد ثلاثة اصطبلات على الشرق الأعلى، وجدد مشهد زين العابدين في الجامع الأموي ورءوس الأعمدة والأساطين وزهبيها، وجدد باب البريد ودو الضيافة للرسل المترددين.

وما خلا عصر المهاليك والعثمانيين بعدهم من آثار جميلة، ومنها جامع تنكز سنة ٧٤٠ وهو الآن مدرسة دينية، وكان تنكز كيلبغا وبرسباي وكافل سيباي وجقماق مولعين بإقامة المصانع التي ازدانت بها دمشق فإن يلبغا أنشأ جامعا عظيما سنة ٨٤٧ وهو اليوم مدرسة نموذجية، وأقام برسباي سنة ٨٥٢ جامعته المعروف بجامع الورد. وأقام كافل سيباي جامعته الذي سباه العلماء " جمع الجوامع " لأن صاحبه لم يترك مسجدا ولا مدفنا معمورا إلا وأخذ من الأحجار والرخام والأعمدة، وهو في باب الجبائية، جعل مدرسة ابتدائية منذ أواخر القرن الماضي. ومن مشهور جوامعهم جامعة التوبة في العقيية، وجامع منجك في الميدان ومدرسة الجقمقية، أمام المدرسة السميساطية على الباب الشمالي من الجامع الأموي والمدرسة الصابونية أمام تربة باب الصغير. ومن

مدارس العثمانيين جامع السنانية من إنشاء سنان باشا، وجامع الدوريشية من عمارة درويش باشا. وجامع مراد باشا في السوق ومدرسة إسمايل باشا العظم ومدرسة عبدالله باشا العظم ومدرسة سليمان باشا العظم. وأهم مصانعهم التكية السليمانية والتكية السليمية وجامع ابن عربي. وفي المعاهد الثلاثة الأخيرة نموذجات مهمة من القاشاني. وللتكية السلمانية نسبة لسليمان القانوني روعة عظيمة ولها مئذنتان جميلتان. وقيل إن هذه المدرسة العظيمة من بناء المعمار سنان التركي المشهور ودفن فيها مؤخرًا بعض ملوك بني عثمان، شغلت الجامعة السورية قسما منها وبقي القسم الأكبر جامعًا.

ومن المآذن العظيمة المئذنة الغربية بالجامع الأموي، عمرها سلوان بن علي المعمار في عهد المماليك، مئذنة جامعة كافل سيبي ومئذنة جامع المعلق سنة ١٠٥٨، وهذا الجامع أجمل بناء في دمشق. وأجمل منابر دمشق منبر جامع الجراح في السوق ومنبر جامع الحنابلة في السفح ومنبر جامع مراد باشا ومحرابه ومحراب جامع التوبة ومنبر جامع الشيخ عبدالغني النابلسي وسقفه وشعريته في السفح.

كل هذا من عمل الأفراد، ومنه ما عمل رجاء الثواب وحب الخير، ومنه ما أريد به الظهور وحماية أموال الباني بوقفها على ما بنى. وكان عمران المدينة أيام العثمانيين كثيبًا، وتكدس الناس في رقعة ضيقة يجعلون الأزقة ملتوية ليختبئوا وراءها وتكون لهم متاريس ساعة يدور القتال في الشوارع والحارات. وكان من نصيب الدور القديمة أن اختبأت في هذه الأزقة ولا ينم ظاهرها إلا عن فقر وخصاصة.

ومن أهم الآثار النفيسة في العهد التركي الأخير سكة حديد الحجاز وطولها ١٣٠٣ كيلو مترات، كانت تمتد من دمشق إلى المدينة المنورة، عمرت بإعانات العالم الإسلامي، ومحطتها من أجل الآثار الحديثة هندسة، وبالسكك الحديدية التي ربطت دمشق بحيفا وبيروت وحلب والموصل، وبالترام الذي ربط شمال بجنوبها وغربها بشمالها الشرقي حتى بلغ دومة حاضرة الغوطة، أصبحت دمشق كالقاهرة مرتبطة مع الضواحي، وتم هذه الشبكة متى جرى تمديد النور والترام إلى الغوطة الوسطي والغوطة الغربية. ولقد اتسعت المدينة من الشمال منذ أنشئ المستشفيات الاسكتلندي والفرنسي في حي القصاع، ولولا نشوب الثورة السورية سنة ١٩٢٥-١٩٢٦ لبلغ العمران أرض العناية على ما كان في القرن التاسع.

وامتد العمران في الجنوب فعمرت عدة محلات وأحياء جديدة وأهم ما تم من العمران كان في الشمال والغرب من دمشق، وفيه قامت الدور الجديدة والقصور المنيفة، منها قصر العابد وهو قصر رئاسة الجمهورية السورية وقصر ناظم باشا وغير ذلك من المصانع وبعضها عمر بأموال التجار على طراز البيوت ذات الطبقات الثلاث والأربع، فخرجت هندسة البيوت عن طراز البيوت أمس ذات الطبقتين فقط. ولولا الحرب وصعوبة تنال مواد البناء بلغت البيوت المنشأة حديثاً نحو ربع أو ثلث المدينة الحالية. وهذا والقوم زهدوا في سكنى البيوت العتيقة على جمالها وكرهوا البيوت الواسعة في أحياء عامة، أزقة ضيقة يقل فيها النور والشمس وتحتاج إلى خدمة كثيرة. وعلى ما خرق في الحارات القديمة من أزقة ومنافل لا تزال المدينة تحتاج إلى شوارع صحية ليظهر بها ما بقي فيها من القصور والقاعات المزخرفة بأجل الصناعات الدمشقية، وما فيها من مدارس وجوامع أثرية.

ومن أهم ما يستلزمه اتساع العمران وفرة السكان أن تنشأ لدمشق مقبرة عظيمة بعيدة عن أقصى حدود المدينة يلزم الأهلون بأسرهم بالدفن فيها بعد الآن، وتغرس المقابر القديمة التي أصبحت ممتزجة بالدور والحوانيت أشجارا ورياحين بحيث لا يمضي خمسون سنة حتى تندثر معظم القبور القديمة وتبقى قبور العظماء الراقدين في تلك التراب. وبذلك تجمع دمشق إلى رعاية الصحة زيتها بخدائق تليق بعظمتها التاريخية. وهذا من أعمال المجالس البلدية. وقد آن أن يطلب منها مثل تلك المطالب بعد أن دخلت في طور البلديات في الجملة، أي أصبحت ذات قانون وذات هندسة ولها تصميمات ومصورات. والواجب على الأهلين أن يعاونوها على تحقيق رغائبها، ولو فعلوا مختارين لا مكرهين لما قامت بعض العمار المستحدثة متشابكة مترابطة في بنائها. والبلدية هنا خطت خطوات. وقد رأيناها قبل أربعين سنة تبيع العرصات الواقعة في جادة الميدان وتسمح للأهلين أن يبنوا حواصل وحوانيت ودورا أمام واجهات الجوامع والمدارس، فتورث تلك الجادة العريضة بشاعة وشناعة. وكان ديوان الحسبة قبل تأسيس البلديات في القرن الماضي يتولى من المدينة كل ما له صلة بالبناء والطرق والصحة وغير ذلك، ثم ضعفت هذه الحركة وضعفت مشخصاتها وأهمها الهندسة، فقد فقدت في أكثر ما قام من العمران فأصبح كل بان يبني كيف يشاء بما شاء من مواد البناء.

ومن الأبنية الحديثة سراي الحكومة والمجلس البلدي ودار الشرطة والثكنة الحميدية ومدرج الجامعة السورية ودار التوليد ودار الآثار ودائرة الأملاك العقارية ودار الأوقاف ودار الصحة ودار الندوة (البرلمان ومدرسة التجهيز ووكالة العابد ومن الفنادق الحديثة أوريان بالاس وفندق أمية وهما أعظم

الفنادق. والفنادق القديمة تتداعى وتحلفها فنادق من الطراز الحديث، كما خربت فنادق القرون الوسطى ودور الضيافة ولم يعرف لها أثر ولا خبر.

عرفنا بما أسلفنا أن عمران دمشق كان يمتد كثيراً في الأيام التي تنجو فيها من آفات الطبيعة وعدوان الظالمين، ويظهر عليها الغنى والرفاهية. ومن شأن الخلق إذا أمنوا واطمأنوا أن يتوسعوا في عيشتهم ويظهروا فضل النعم عليهم.

خطط دمشق ومصانعها

تنقسم ^(١) دمشق اليوم إلى قسمين متجاورين، المدينة القديمة والمدينة الحديثة، يقوم القسم لقديم حول جامع بني أمية والقلعة داخل السور وظاهره. وقد حافظت أحيائها على مظهرها القديم وعلى ما كانت عليه منذ مئات من السنين. ويخترق هذه المنطقة من الغرب إلى الشرق شارعان الأول شارع الملك فيصل يمتد شمال سور المدينة ويصل ساحة الشهداء بمحطتي القصاع وباب توما، ويمر فيه خط ترام طوله أحد عشر كيلو مترا يصل دومة بدمشق. وفي هذا الشارع حوانيت العلافين والحدادين وبائعي البقول والأثمار وحواصل الخشب وفيه سوق الخضروات وفيه جامعان أثريان جامع السادات وجامع المعلق.

والشارع الثاني سوق مدحت باشا يقع إلى الجنوب وداخل السور وهو جزء من الشارع المستقيم القديم الذي يصل باب الجابية بالباب الشرقي. وتكثر في هذا الشارع متاجر النسيج الوطني والأعبئة والكوفيات والعقل والنحاسون، وبين هذين الشارعين شارع ثالث وهو سوق الحميدية جنوبي القلعة وينفذ منه إلى جامع بني أمية، وهو من أهم شوارع المدينة تتمركز فيه الحركة التجارية، وفيه أكبر مخازن المصنوعات الأجنبية. وبين هذا الشارع وشارع مدحت باشا تتجدد اليوم محلة سيدي عمود التي قضى عليها حريق عام ١٩٢٥. ويعارض هذه الشوارع عدد كبير من الطرق والأزقة ليسهل اتصال

(١) أشكر لأصدقائي الأساتذة الأمير جعفر الحسيني والسيد بدر الدين دياب، والسيد هاني الجلاد على تفضلهم بإعطائي معلومات حديثة عن خطط المدينة وصناعتها وتجارتها.

هذه الشوارع بعضها بعض. وهناك عدة شوارع متسلسلة تمتد من شمال المدينة إلى جنوبها بتدئى من ساحة الشهداء فتخرق محلة السنجدار وباب الجابية والسنانية والسويقة وباب المصلي والميدانين التحتاني والفوقاني، وتنتهي عند باب مصر الواقع في أقصى جنوب المدينة ومنه كان يخرج حجاج بيت الله الحرام. في هذا الشارع خط ترام طوله ثلاثة كيلومترات ونصف كيلومتر وفيه عدد كبير من المتاجر البسيطة معظم علاقتها مع القرويين ولا سيما الميدان وباب المصلي مركز تجارة الحبوب.

وقد حافظ أكثر أقسام هذه الشوارع الأخيرة على حالتها القديمة، ونصيبها من التجدد وال عمران ضئيل، ويخيم عليها مظهر الكآبة والفقر. ولولا وفرة الأبنية الأثرية التي تزين هذه الشوارع لما امتازت عن عمران قرية من القرى. وأشهر آثارها إذا ابتدأنا من الشمال جامع درويش باشا وتربته والمدرسة السباهية (كافل سيبي) وجامع العجمي وتربة بهادر آص والمدرسة الصابونية وتربة الشيباني وتربة الشيخ حسن وجامع جوبان وجامع صهيب وجامع منجك وجامع فلوس وزاوية سعد الدين والمدرسة الفونشلية والمدرسية الرشيدية. وقد أحيطت المدينة القديمة منذ عهد قريب شوارع جديدة إحاطة السوار بالمعصم حتى يتجه العمران إليها وتخف وطأة الازدحام في وشارع المدينة الرئيسية.

لا يتأتى لمن يجول في المدينة القديمة أن يظفر بجميع محاسنها على وجه السرعة، اللهم إلا ما يشاهده من مساجد وخانقها و حمامات وبيمارستانات عمرت في شوارع ضيقة وبين أبنية وضيعة، قد يستغرب المرء تشييدها بينها، ويدهش للبون الشاسع والتناقض الصريح بين مظهريهما. ولا يمكن أن يدرك

سر وجودها في هذا الوسط الحقيق بمظهره ما لم يجتاز هذه الجدران البسيطة ويطلع على ما وراءها ليرى دورا شرقية كصور ألف ليلة وليلة، فيها بأحات واسعة مرخمة بالمرمر تظللها الأشجار والرياحين وإيوانات شارع وقاعات مزخرفة وبرك ماء جارية تبهج الأبصار وتنعش النفوس. وعندئذ تتجلى له حقيقة دمشق وما كانت عليه من العظمة في العصور القديمة ويدرك سبب شهرتها وافتتان الناس قديما بمحاسنها، وإكثار الشعراء من وصفها.

وعلى ذكر الشوارع لا بد من الإشارة إلى أن بعض أسواق المدينة لا تزال معطاة غير مكشوفة على نحو ما كانت الشوارع في معظم بلاد الشرق قديما. ومن الشوارع المسقوف بجملون من حديد أو حجر أو خشب وطين مثل سوق مدحت باشا وسوق الذراع وسوق الأورام وسوق الحرير والقوافين والسكرية وسق القطن ومصلبة باب السريحة وباب الحايبة والسنانية.

وقد امتد البناء الجديد في غرب سفح جبل قاسيون حتى اتصل بمحلة الصالحية وحي الأكراد وساحة الشهداء. وتقدر مساحة ما تجدد من المساكن في هذه المنطقة بثلاث مساحة المدينة القديمة. ويربط الأحياء القديمة بالأحياء الجديدة خط ترام وله ٣٢٠٠ متر يمر من جادة الصالحية حتى المهاجرين، ويتفرع عنه خط ثان من الجسر متجها إلى حي الشيخ محيي الدين طوله ١٠٠٠ متر. ومصور الأحياء الجديدة والصالحية يشبه طيارة مطاردة، جناحها الأيمن حي الأكراد والصالحية، وجناحها الأيسر حي المهاجرين ومؤخرتها محلة عرنوس والشهداء. وهذه الأقسام خالية من كل أثر قديم. أما محلة الأكراد والصالحية فغنية بالأبنية الأثرية، وأشهرها المدرسة العمرية والترية الخانوتية والبدرية والمدرسة الأتابكية والجامع المظفري والمدرسة الجهاركسية والركنية

والصاحبة والبيهارستان القيمري وتربة السيد حفيظة والخاتونية والمدرسة المرشدية والتربة القيمرية والتكريتية وجامع محيي الدين بن عربي، ومعظم هذه الأبنية من العهد الأيوبي.

وأما أحدث الأبنية وأجمل القصور فتقوم غربي محلتي الشهداء وعرنوس حيث تنشأ أحياء المدينة القديمة والحديثة عظيمًا جدًا من حيث طراز البناء والعمارة. فبينما نرى المدينة القديمة لم تزل حريصة على تقاليدها الشرقية الإسلامية نرى عكس ذلك في الأحياء الجديدة حيث أصبح السفور ولبس القبعات وكشف الرأس ولبس (الشورت) وحف الشارين من الأمور المألوفة التي لا تنكر.

إن الأقسام الجديدة هي مناطق سكن، ليس فيها سوى حوانيت بسيطة في جادة الصالحية. وقد اختار الأجانب هذه المنطقة لسكنهم. وفيها البرلمان السوري والقصر الجمهوري وذوائر السلطة الإفريقية والقنصليات والمعاهد الأجنبية.

وقد خطت دمشق منذ عشرين سنة خطوات سريعة في سبيل العمران وأنشئت فيها أحياء حديثة وتجددت أخرى. مما يبشر المدينة بمستقبل زاهر، لا سيما بعد أن وضع لها مخطط روعي فيه أحدث أساليب العمران، وقد أنجز أثناء هذه الحرب تنظيم مدخل دمشق، فصار يدخل إليها القادم من بيروت من شارع غريض طوله خمسة كيلومترات بين الحدائق والأشجار، ويطل منه على ملعب المدينة ودار الآثار والجامعة السورية ومدرسة التجهيز وتكتيبي السلطانيين سليم وسليمان، وهو أحد متنزهات المدينة التي تغبط عليها. وقد دعي مؤخرًا شارع فاروق الأول.

وتمتاز دمشق عن غيرها من المدن كثيرة متزهاتها، تحديق بها الأشجار من كل جهة وحيث خرجت منها لا ترى إلا متزهات وأشهرها وادي الربوة ودمر والمزة وسهل القابون والغوطة. وأما ملاهي المدينة ودور السينما والفنادق فهي بجوار ساحة الشهداء حيث أكثر المصانع الرسمية. ولا يمضي على دمشق وقت طويل حتى تصبح في طليعة المدن الشرقية عمراناً وتنسيقاً، وتستعيد مركزها القديم الزاهر تجمع بين القديم والحديث فيجد فيها كل غاوى هواه بعون الله.

بعض الكتابات والنقوش الأثرية

يقول الأثري (فان برشم) إن في الجامع الأموي في دمشق نصوصاً عربية وكتابات عجيبة من عهد السلجوقيين كتبت بالقلم الكوفي، وسلسلة من أوامر سلاطين المماليك، وأبواب المدينة عبارة عن متحف ملوك الشام منذ عهد نور الدين والملك العادل إلى زمن الغوري. وفي وقفيات هذه المعاهد المزبورة على المساجد والمدارس والمستشفيات والأديار والقبور تفاصيل غريبة في إدارة هذه الأبنية وجغرافية ضاحية دمشق. وفي هذه المدينة يتيسر للناظر في بعض الكتابات الباقية من عهد نور الدين تعيين الزمن الصحيح الذي خلف فيه الخط المدور الخط الكوفي.

ولقد كشفت في الأعوام الأخيرة واجهة عظيمة من الحائط الغربي في الجامع الأموي معمولة بالفسيفساء، ويرد عهداً إلى أوائل بناء الجامع، كما كان عثر في قبة صحن هذا الجامع على رقوق من أهم ما ظفر به الباحثون. وكانت هذه القبة القائمة على سوار عالية معلقة لم تفتح من قرون طويلة ففتحت سنة ١٣١٧هـ بأمر السلطان عبد الحميد الثاني العثماني، وإجابة لمقترح الإمبراطور

جليوم الثاني الألماني، فوقعوا فيها على قطع من الرقوق كتبت فيها سور من القرآن الكريم بالخط الكوفي ومنها قطع من مصاحف وربعات ومقاطع من الأشعار بالأرمنية الفلسطينية وكتابات وأدبيات دينية وقصص رهبانية، ومزامير عربية بالحرف اليوناني ومقاطع من شعر أوميروس. وكراريس وأوراق بالقبطية والكرجية والأرمنية في موضوعات دينية، وجزازات عبرانية وسامرية فيها نسخ من التوراة وتقاويم أعياد السامريين، وصلوات وصكوك بيع وأوقاف وعقود زواج، بينها مقاطع لاتينية وإفرنسية قديمة، وقصائد يرتقي عهدا إلى أيام الحروب الصليبية ونسخ إنجيل برقوق.

فأهدى السلطان قسما منها إلى إمبراطور ألمانيا، والباقي ما زال مخبوءا في مستودع وزارة الأوقاف في الأستانة، وأهدى بعض رجال السلطة في دار الملك وفي عاصمة الأمويين بعض الرقوق من القرآن منها مجموعة حفظت في دار الآثار بدمشق بينها قطعة كوفية مكتوبة على رق من ربة شريفة. وقفها عبد المنعم بن أحمد سنة ٢٩٨ وعلى الوجه الثاني نقش مذهب باسم واقفها.

وبعد فإن من ألقى نظرة عجل على بعض المساجد الأثرية يقرأ خطوطا جميلة ويسقط على نقوش بديعة من صنع أهل الفن من الدمشقيين. ففي جامع التيروزي والدرويشية والسنانية والمرادية وجامع أقوش النجيب في السويقة نماذج من القاشاني البديع، وفي جامع التبان بالمناخلية عمودان من القاشاني على طول متر وله منبر مهم، وفي مدفن الصحابي بلال الحبشي تابوت صنع سنة ٦٢٥ وفيه قاشاني من صنع كوتاهية. وفي جامع تنكز قبران في حجرة واحدة ولها محراب من الفسيفساء ونافذتان جميلتان. ويكثر القاشاني في الجوامع التي بنيت في عهد العثمانيين وفي بعض الدور القديمة التي يرد عهد بنائها إلى أكثر

من قرنين. ولا تكاد قاعة قديمة في البيوت القديمة التي بناها أرباب اليسار تخلو من القاشاني البديع. وفي زقاق السقظى في الصالحية بيتان باسم وقف السقظى تجد في الأول منها ١٦ قطعة مربعة من القاشاني على صورة محراب كتبت عليه أسماء الخلفاء الراشدين، وفي الثانية قطعة مسدسة الشكل و٤ قطع مربعة. وفي جامع الشامية معرشات بديعة وخطوط. وتابوت السيدة سكيئة في مقبرة الباب الصغير عمل سنة ٥٦٠، ونقش بخطوط كوفية داخل حروف ونقوش وحروف أخرى بالكوفية وتابوت سيد صهيب في الميدان من توأبيت القرن السادس، وتابوت بخت خاتون المعروفة بالسيدة حفيظة جميل بديع. وفي الصمادية في حي الشاغور عتبة سقوف مهمة. وفي بعض الأحياء القديمة سقوف بديعة باعها أصحابها من عشاق الآثار، كما باعهم الصناديق القديمة المكتبة وأكثرها من خشب الجوز المتين. وفي المدرسة التكريتية أمام دار الأشرفية البرانية بالصالحية مقرنصات جميلة ذات تعاريف وكتابات.

وصف القدماء والحدثين لدمشق

قيل لإسحق بن يحيى الختلي - من ولاية دمشق ٢٣٥هـ -: لم سكنت دمشق وفلحت أرضها وأكثرت فيها الغروس من أصناف الفاكهة، وأجريت المياه إلى الضياع وغيرها؟ قال: لا يطيق نزولها إلا الملوك.

وقيل له: كيف ذلك؟ قال: ما ظنكم ببلدة يأكل فيها الأطفال ما يأكله في غيرها الكبار؟ وحق لهذا الوالي أن يقول ذلك، فإن دمشق معروفة منذ القديم بأنها بلدة رفاهية يكاد الفقير يعيش فيها عيش الغنى إلا قليلاً، ويتفنن أهلها في مآكلهم ومشاربهم وقصفهم ولهوهم.

وصف المقدسي في القرن الرابع مدينة دمشق بأنها مصر الشام، ودار الملك أيام بني أمية، وثم قصورهم وآثارهم وبنائهم خشب وطين. أكثر أسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن. لا ترى أحسن من حماماتها ولا أعجب من فواراتها، ولا أحزم من أهلها، ومنازلها ضيقة وأزقتها غامة. تكون نحو نصف فرسخ في مثله في مستوى، والجامع أحسن شيء للمسلمين اليوم، ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه.

ووصف ابن جبير في القرن السادس هذه المدينة فقال: «إنها بلد ليس بمفرط الكبر، وهو مائل للطول، وسككه ضيقة مظلمة ويناؤه طيب وقصب، طبقات بعضها فوق بعض، ولذلك كثيرًا ما يسرع الحريق إليه، وهو كله ثلاث طبقات فيه من الخلق ما تجمعه ثلاث مدن لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقًا».

ووصفها ياقوت في القرن السادس أيضًا قال: «ومن خصائص دمشق التي لم أر في بلد آخر مثلها كثرة الأنهار بها وجريان الماء في قنواتها، فقل أن تمر بحائط إلا والماء يخرج منه في أنبوب، إلى حوض يشرب منه ويستقي الوارد والصادر، وما رأيت بها مسجدًا ولا مدرسة ولا خانقاهًا إلا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان، والمساكن بها عزيزة لكثرة أهلها والساكين بها وضيق بقعتها، ولها ريبض دون السور محيط بأكثر البلد يكون في مقدار البلد نفسه».

ووصفها شيخ الربوة - وهو ابن دمشق - أوائل القرن الثامن فقال: «إنها مقسومة ثلاث طبقات؛ قسم مبثوث العمارة في غوطتها، لو جمع لكان مدينة عظيمة، ما بين جواسق وقصور وقاعات واصطبلات وطواحين وحمامات وأسواق ومدارس وترب وجوامع ومساجد ومشاهد غير القرى والضياع الأمهات، وهذا الذي ذكرناه لا يوجد غيرها أصلًا. والقسم الثاني تحت الأرض منها مدينة أخرى من متصرفات المياه والقنى والجداول ومسارب ومخازن وقنوات تحت الأرض كلها، حتى لو حفر الإنسان أينما حفر من أرضها وجد مجاري المياه تحته مشبكة طبقات يمته ويسرة شيئًا فوق شيء. والقسم الثالث سورها وما فيه وحوله من المعمور. وكأنها هي في وصفها طائر أبيض في مرج أخضر، يترشف ما يصل إليه من الماء أولًا فأولًا».

وهذا أصدق وصف ينطبق عليها اليوم.

ووصفها ابن فضل الله العمري الدمشقي في القرن الثامن فقال: «إن غالب بنائها بالحجر، ودورها أصغر مقادير من دور مصر لكنها أكثر زخرفة منها، وإن كان الرخام بها أقل دائمًا، فهو أحسن أنواعًا، وإن عناية أهل دمشق بالمباني

كثيرة، ولهم في بساتينهم منها ما تفوق به وتحسن بأوضاعه، وأجل حاضرتهما ما هو بجانبها».

وقال ابن بطوطة في هذا القرن أيضًا: «إن أهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد».

ووصفها القلقشندي أوائل القرن التاسع فقال: «إنها مدينة حسنة الترتيب، جليلة الأبنية ذات الحواجز، بنيت من جهاتها الأربع، وبها الجوامع والمدارس والخوانق والرُّبَط والزوايا والأسواق المرتبة والديار الجميلة المذهبة السقف المفروشة بالرخام المتنوع، ذات البرك والماء الجاري، وربما جرى الماء في الدار الواحدة في أماكن منها، والماء مُحكم عليها من جميع جهاتها بإتقان محكم».

وعرض لوصفها الظاهري في القرن العاشر بقوله: «إنها مدينة حسنة إلى الغاية تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة، وبها طارمة مشرفة على المدينة فيها تحت المملكة مغطى لا يكشف إلا إذا جلس السلطان عليه، وبها جوامع حسنة ومدارس وأماكن مباركة وشوارع وأسواق وحمامات وبساتين وأنهر وعمائر تحير الواصف، وبها مارستان لم ير في الدنيا مثله قط. وأما جامع بني أمية فهو أحد العجائب الثلاث، ولقد رأيت في بعض التواريخ أن عجائب الدنيا ثلاث: منارة الإسكندرية وجامع بني أمية وحمام طبرية، أما الميدان الأخضر وما به من القصور الحسنة فعجيبية من العجائب، وأما مفترجات دمشق فيعجز الواصف عن حصرها». اهـ.

هذا قليل مما قاله الأقدمون في وصف دمشق، وما منهم إلا المعجب بما زانتها به الطبيعة، وما عملته يد الإنسان في أديمها.

وقد بالغ الشعراء وأكثروا في وصف طبيعتها، وربما بلغ ما مدحت به مجلدًا برأسه، فمنهم من قال مخاطبًا لها:

ولكم أحدث عنك من لاقيته
والأرض في عرض وطول دائما
وجميع من سمع الحديث يصدق
لم يحو مثلك غربها والمشرق

ومنهم من وصفها بقوله:

يفغى بها القلب أنفاسًا بلا كدر
إن الهواء إذا رقت مناسمه
فكل صورة أنس في منازلها
لو لا أمور وأرزاق مقدره
فن يجلّ الوبا أطرافَ ثاويها
في بلدة لطفت أخلاط أهليها
وكل نزهة نفس في روايبها
لم يرتحل عن دمشق حاضر فيها

وفيها يقول البحري في قصيدته للخليفة المتوكل التي مطلعها:

العيش في ليل (داريا) إذا بردا
والراح نمزجها بالراح من (بردي)

إلى أن قال:

أما دمشق فقد أبدت محاسنها
إذا أردت ملأت العين من بلد
يمسي السحاب في أجالها فرقًا
فلمست تبصر إلا واكفًا خضلاً
كأننا القيظ ولى بعد جيته
وقد وفي لك مطربها بيا وعدا
مستحسن وزمان يشبه البلدا
ويصبح النبت في صحرائها بددا
أو يانمًا خضرًا أو طائرًا غردا
أو الربيع دنا من يعد ما بعدا

ومن أجل ما قيل في مدحها قصيدة أمير شعراء العصر أحمد شوقي.

وهاهي برمتها:

قُم ناجٍ جِلَّقٍ وَاثَشْدَ رَسْمٍ مِّنْ بَانُوا
مشت على الرَّسْمِ أحداثٌ وَأزْمان

هذا الأديم كتاب لا كفاء له
 الدين والوحي والأخلاق طائفة
 ما فيه إن قلبت يوماً جواهره
 بنو أمية للأبناء ما فتحوا
 كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهم
 عالين كالشمس في أطراف دولتها
 يا ويح قلبي مهما انتاب أرسمهم
 بالأمس قمت على (الزهراء) أندبهم
 في الأرض منهم سماوات والوية
 معادن العز قد مال الرغام بهم
 لولا دمشق لما كانت (طليطلة)
 مررت بالمسجد المحزون أسأله
 تغير المسجد المحزون واختلفت
 فلا الأذان أذان في منارته
 آمنت بالله واستنيت جنته
 قال الرفاق وقد هبت خمائلها
 جرى وصفق يلقانا بها (بردى)
 دخلتها وحواشيتها زُمردة
 والحوُر في (دُمُر) أو حول (هامتها)
 و(زبوة) الواد في جلاب راقصة
 والطير تصدح من خلف العيون بها

رث الصحائف باق منه عنوان
 منه وسائره دنيا وبهتان
 إلا قرائح من «راد» وأذهان
 وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
 فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
 في كل ناحية ملك وسلطان
 سرى به الهم أو عادته أشجان
 واليوم دمعي على (الفيحاء) هتان
 وبيرات وأنواء وعقبان
 لو هان في تربه الإبريز ما هانوا
 ولا زهت بني العباس (بغدان)
 هل في المصلّى أو المنحرب مروان
 على المتابر أحرار وعبدان
 إذا تعالى ولا الأذان آذان
 دمشق رَفُحٌ وجنات وريحان
 الأرض دار لها (الفيحاء) بستان
 كما تلقاك دون الخلد رضوان
 والشمس فوق لجين الماء عقيان
 حور كواشف عن ساق وولدان
 الساق كاسية والنحر عُريان
 وللعيون كما للطير الحان

وأقبلت بالنبات الأرضُ مختلفًا
وقد صفى (بردى) للريح فابتدت
ثم اثنت لم يزل عنا البلال ولا
خلفتُ (لبنان) جناتِ النعيم وما
حتى انحدرت إلى فيحاء وارقة
نزلت فيها بفتيان جحاجة
بيضِ الأسرة باقٍ فيهم صيد
يا فتية الشام شكرًا لا انقضاء له
ما فوق راحتكم يوم السماح يدُّ
خيلةُ الله وَشْتها يدها لكم
شيدوا لها الملك وابنوا ركن دولتها
لو يُرجع الدهر مفقودًا له خطر
الملك أن تعملوا ما استطعتمو عملاً
الملك أن تخرج الأموال ناشطة
الملك تحت لسان حوله أدب
الملك أن تتلاقوا في هوى وطن
نصيحة يلوها الإخلاص صادقة
والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة
ونحن في الشرق والفصحى بنور حِم

أفواهه فهم أصباغ وألوان
لدى ستور حواشيهن أفنان
جفت الماء أذبال وأردان
نبت أن طريق الخلد لبنان
فيها الندى وبها (طي) و(شيبان)
أباؤهم في شباب الدهر غسان
من (عبد شمس) وإن لم تبق تيجان
لو أن إحسانكم يجزيه شكران
ولا كأوطانكم في البشر أوطان
فهل لها قيم منكم وجاتان
فالملك غرس وتجديد وبنيان
لآب بالواحد المبكي ثكلان
وأن يبين على الأعمال إتقان
لمطلب في إصلاح وعمران
وتحت عقل على جنيبه عرفان
تفرقت فيه أجناس وأديان
والنصح خالصة دين وإيمان
أو حكمة فهو تقطيع وأوزان
ونحن في الجرح والآلام إخوان

وصف الأفرنج منذ القرن الماضي دمشق وصفًا يختلف باختلاف معرفتهم

وسياسة دولتهم، وهاكم نموذجاتها.

فمن أول من وصفها (فولني) الرحالة الفرنسي، زارها حوالي سنة ١٧٨٨م، ومما قاله فيها: إن العرب لا يذكرون دمشق إلا معجبين بها، ولا يفتنون يمتدحون خضرة حدائقها ولطافة نسيمها وكثرة فاكهتها وتعدد أصنافها، ووفرة مياهها العذبة وصفاء فواراتها وعيونها. وهي إلى هذا متفردة بوجود أماكن للنزهة في الخلاء وسط الريف والفلاة. وما من مدينة كدمشق تحوي قنوات وسلسبيلات.

ونقل عن نيبور الذي وصف خططها ومسحها فكانت ٣٢٥٠ أرتوازاً (مقياس قديم طوله ست أقدام) أي أن استدارتها أقل من فرسخ ونصف، قال: وإذا حكمنا على هذا القياس بمقابلتها بحلب أرى أن دمشق تحتوي على ثمانين ألفاً من السكان (سكانها اليم نحو ثلاثمائة ألف عدا الضواحي).

وطلب رولان دو جلس (من كتاب فرنسا المعاصرين) إلى مولاه وهو يحدق نظره في مئذنة عيسى المظلة على جامع بني أمية أن يكتب له عدم التعب وألا تتم له رغبة في البحث حتى يأتي على آخر رحلته التي لم يكن يخلو فيها من عجب دائم وحب أخاذ. وهذا معناه أنه دهش بمناظر دمشق.

أمّا (الأخوان تارو) فقد صغراً من قدرها وقالوا أن ليس فيها ما تروق مشاهدته كثيراً، وقصراً مدهشاتها على ما حبتها به الطبيعة فقط. ومما قالاه: «وهل الثروة الدائمة، والتقلب في حدائقها، وخصب جناتها هي التي تخفي على الدمشقيين مبلغ الهرم الذي حلّ ببلدهم؟ فهم يعمون عن انحطاطها وجمالها الدليل، وما برحوا مع هذا يعتقدون أنه سيعود إليها بهاؤها الذي كان على العهد الأموي، وفي أيام السلطان صلاح الدين، وهم منذ خمسة قرون يخضعون لحكم الترك على حين هم أشد ذكاء وأكثر مضاء منهم».

وقال (موريس باريس): إن دمشق عتبة البادية يجتمع بها على الدوام مائة ألف بدوي إلى ثلاثمائة ألف حضري مسلم، وفيها حلم قديم ينبعث من تحت ظلال أشجارها على شاطئ التيار السريع. وإن دمشق لتستهوي قلوبنا فترق لشينخوختها وفتوتها، وهي تبتدى ما أصابها من حوادث الأيام وما لها من سحر خالد، ضامة بين جوانبها تلك الآكام الجرداء. دمشق موطن من مواطن الفكر، ومعهد من معاهد الشعر، وقصر من قصور الروح، فيها يجتمع الغرب والشرق، لا يحاول كل منهما أن يصرع صاحبه، بل يجنح إلى التفاهم معه والامتزاج به. قال: ولقد حدثني راهبة شريفة من راهباتنا أن الأسر الإسلامية على غاية من الأخلاق العالية، وأن الإسلام دين يأمر بأمر صالح.

والغريون يكتبون حقائق دمشق إذا طال مقامهم فيها، ولكن أكثرهم يصرف فيها أيامًا أو ساعات محدودة ويطلع على قرائه بكتاب مرتجل. وما أدري كيف يحكم مؤلف على مثل هذه العاصمة في زورة قصيرة يقضي فيها، ولا يجتمع فيها إلا إلى الرجال الرسميين يلقنونه ما يوافق منازعهم، أو إلى أصحاب الفنادق والتراجم والأدلاء، وهؤلاء أيضًا لا يدركون ما يجب أن يعرف من سحر هذه المدينة.

وقال رامبر السويسري: إن دمشق في نظر سكان البادية ومن ينزل في أطرافها الأربعة التي تصهرها الشمس جنة ذات مياه دافقة، وظلال وارفقة، وثمار غضة جنية. ولا يشعر المرء بأسف شديد في أي مكان نزل، كما يشعر إذا رأى قطعة من الأرض بلغت هذه الحد من الجمال، وكان حظها أن يديرها العثمانيون المعروفة إدارتهم بالجهل والجشع.

سكان دمشق وخصائصهم

من الصعب تحديد المقدار الذي دخل في الدمشقيين من دم الأراميين أو الروم، أو من دم الأنباط والعرب، أو من سائر العناصر الأخرى التي تديرت هذه الحاضرة، وامتزجت بسكانها الأصليين. ذلك لأن من العادة أن تدخل في الحواضر الكبرى أجناس مختلفة من الخلق في كل دور من أدوار الدول، وفي كل عصر من عصور التاريخ، فيتعذر وضع إحصاء لكثرة ما يدخل فيها ويخرج منها في كل عقد، فمال الحال بعشرات من العقود أو عشرات المئات من الأعوام.

اتصلت هجرة العرب قبل الإسلام وبعده إلى هذه الديار اتصالاً لم ينقطع، وكان من أكبر الحوافز إلى ذلك شئون اقتصادية وآفات سماوية. وربما جاءت القبيلة برمتها أو أكثرها، وتفرقت في أحشاء القطر فأصاب حاضرتة قسط غير قليل منها. لا جرم أن الكتلة الأولى من العرب الذين أووا إلى دمشق كانوا من غسان على كثرة، ومن التنوخيين والسبأيين والنبطيين على قلة. يقول اليعقوبي: وكانت دمشق منازل غسان وبطون من قيس وبها جماعة من قريش. وقال غيره: إذا جزت جبل عاملة تريد قصد دمشق وحمص وما يليها فهي ديار غسان من آل جفنة وغيرهم. وإلى قيس ويمن يرجع مجموع أصول القبائل العربية المهاجرة، وهم الذين يطلق عليهم اسم العشران جمع عشير:

كثرت العناصر في الشام على عهد الإسلام فنزل في بعض أرجائها جاليات من الفرس وبعدها قبائل التركمان، نزلوها منذ عهد السلجوقيين، ثم انهال عليها الأكراد والقوقازيون من الجراكسة والطاغستانيين والكرج، ثم الهنود

والأفغانيون والمغاربة والأرمن، يتكلمون بلغتهم أولاً ويتعلمون لغة البلاد حالاً. وفي هذا العصر انتشرت الفرنسية والإنكليزية وغيرها من لغات الغرب، إلا أن العربية مازالت تستغرق كل طارئ، وكل غريب نزل دمشق يلقف هو وأولاده هذه اللغة، ويندمج في أهلها فتصير منه البوتقة العربية رجلاً عربي اللسان، يصبح بعد بطين عربيّاً بلسانه وعواطفه.

وانتفع الدمشقيون بهذا الاختلاط، وكان من تمازج الجنس الآري بالسامي خاصة نسل جميل متين فيه أجمل خصائص هذين الجنسين، أو الأجناس السائرة التي امتزج دمها بدماء أخرى.

وبهذا الاختلاط كثر الذكاء والمضاء، وتوفر في أهلها الحزم والعزم، على ما أشار إلى ذلك الباحثون في طبائعهم.

ورأينا الدماشقة يجدون ويهزلون، وجدهم جد وهزهم هزل، ورأيانهم وقد جعلوا بلبلهم طابعا خاصاً في مرافقها ومصانعها ومساكنها، يكاد لا يجتمع مثله في عاصمة من عواصم الشرق القريب. وكان الدمشقيون على الأيام إذا عانوا التجارة جاءوا في الصف الأول بين تجار الأقطار المجاورة، وإذا مارسوا الصناعة بدؤوا غيرهم وأتقنوا عملهم، وإذا انقطعوا إلى الزراعة قلبوا وعمروا وعرسوا، وإذا تولوا الأعمال الإدارية والحربية والدينية كانوا على الأغلب مثلاً صالحاً. وها نحن نرى رجالاً منهم استولوا في عهدنا على التجارة في شرق الأردن وفلسطين، وكانت امتدت أيديهم إلى قسم عظيم من تجارة بيروت، كما استولوا على جزء من تجارة مصر، فنازعوا فيها الرومي والإيطالي وغلبوهما في بعض الأحيان. ومنهم مئات كان لهم من صبرهم ودءوبهم ما أعانهم على الاستئثار بقسط من تجارة العراق وإيران. أما في المهاجر

فليسوا فيها دون سائر الشاميين، إلا أن سكان الجبال أصبر على شظف العيش من سكان السهول. ويغلب على التاجر الدمشقي النظام كما يغلب عليه التدقيق والحرص في الغالب، لا يفرط ولا يفرط، ويحافظ على شرف توقيعه فيؤدي ما يفرض عليه أداءه من دين في حينه.

وفي بعض الإضرابات الأخيرة في سبيل الاستقلال وهو إضراب دام خمسين يوماً جملة ما تلكأ تاجر واحد عن تأدية ما استحق عليه للمصارف، وحاولت السلطة أن تكره التجارة على فتح مخازنهم وحوانيتهم، فلما أبوا فتحت هي محال تجاراتهم وصرفت منها الحراس وقطعت عنا النور؛ لتحمل أصحاب الأسواق على معاودة أعمالهم متى أوجسوا خيفة من اللصوص على أموالهم، فما مدَّ أحد يده إلى شيء، لأن السارقين والطارقين تعاهدوا كما تعاهد المومسات ألا يارسوا عملهم ما دام الإضراب، وما شكأ أحدٌ من الفقراء جوعاً في بلدة كان رزق أكثر سكانها مناط عملهم اليومي، فقام أهل السعة بإطعام أرباب الفاقة؛ فلم يسمع حسُّ تذر ولا تأفف، ولم يسجل غير ديبب المطالبة الصامته بالحق المسلوب. وهذا مما يستغرب من مدينة عظيمة فيها أصناف من الخلق، وسكانها مع الضواحي لا يقلون عن نصف مليون من النفوس.

والدمشقيون من أكثر العرب حينئذ إلى بلادهم، إذا اغتربوا وإذا اغتنى الدمشقي قليلاً لا يلبث أن يعود إلى مسقط رأسه.

وفي الدمشقي قوة التمثل، إذا دخل بلاد الترك أو الهند أو فارس أو أرض الإفرنج، تعلّم في الحال لغة البلاد التي نزلها. أما من تعلموا لغة من تلك اللغات الغربية في المدارس؛ فإنهم يتكلمون بها ويكتبونها كأهلها، وهكذا كان

لنا أدباء بالتركية وأدباء بالفرنسية وأدباء بالإنكليزية. ويشبه استعداد الدمشقي في باب إتقان اللغات الأجنبية استعداد أهل بولونيا في أوربا لتلقف اللغات.

ومع كثرة إقبال الدمشقيين على الأخذ من مدارس الترك آخر عهدهم؛ ليكون منهم قضاة وضباط ورجال إدارة حتى ليظنهم من يراهم في عهد العثمانيين الأخير أنهم تركوا جملة واحدة هم وذرائعهم، فإنهم ما لبثوا في الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ أن عادوا إلى العناية بلغتهم، وبدءوا يقلبون أسماء أولادهم، وكان بعضهم تركياً، إلى أسماء عربية صرفة، ورجعوا عن مدحت ورفعت وحمدي ورمزي ورشدي وكزيده وناديده وباكيزه إلى زهير وعدنان وغسان وزباد وصفوان وأسامة ومرؤان وريمة وتميمة ورناب.

وينطوي الدمشقي على شيء من حب التقليد، ويتلقف الأمور الجديدة برحب صدر، وإن كان في مشخصاته أقرب إلى المحافظين، ويبعد في الجملة عن الإسفاف، وينزع إلى التجميل والاستغناء، وفيه شيء من عزة النفس والتمجد والكرم، وكثيراً ما تراه في عمله ويتسع في الإنفاق حب الاستكثار من المكاسب. وأنت إذا جئت تبحث في نفسه تجده من العامة أو ممن يقرب منهم، دعا إلى ما دعا، وعنى بما عنى، تقليداً لأبيه أو عشيره أو جازه. وفي الغالب أن يكون للرؤساء الذين يخاطبونه باللسان الذي يفهمه سلطان عليه. ولهذا كانت دمشق أول بلد طالب بالوحدة العربية بعد الحرب العالمية، وأول بلد صبا إلى الجامعة الإسلامية، وأول بلد ساءه تقسيم الديار الشامية إلى دويلات صغرى، وسعى جهده لضم الشمل بعد انبثاته. وإذا وقع حيف على العراق أو على فلسطين بكت دمشق أول الباكين، وغاوتها ما استطاعت في تخفيف النكبة، وإذا أصاب المصري والحجازي شيء من الخير فرحت كأنه لها.

وفي دمشق خصائص القرى وخصائص المدن، وبيننا تراها راقدة كقرية آمنة إذا بها تهب هبة أنية لمطلب تزيده وهي تراه حسناً، وأنت إذا أنعمت النظر في الأمر وقلبت الرأي في ثورتها تشهد أنها ابنة ساعتها، ولكنها كانت تتخمر زمناً في صدور العقلاء من بينها. وما ظهوروا بما ظهوروا إلا عن الضرورة الشديدة.

والدمشقي يعطف منذ القديم على الغريب حتى يكاد يفرط فيما تقتضيه واجبات الضيافة والمجاملة، هكذا علمه بنو أمية على ما يظهر يوم كانت دمشق لا عاصمة الإسلام بل عاصمة الدنيا.

والدمشقي يحنو على الفقراء ويكثر برهم، ولا سيما في الأعياد والمواسم والمآتم، وما زال منذ خمس وعشرين سنة يعاضد الجمعيات الخيرية التي ألفها فريق من أهل الخير والحمية، تعول الفقراء وتعلم اليتامى والأميين من الشباب. وقد قام المحسنون من تجارهم في هذا العام بمشروع المؤاساة ف تبرعوا له بمبالغ عظيمة وسينشئون بها جمعوا مستشفى عظيمًا ودارًا للعجزة.

ومن طبع الدمشقي ألا يؤخذ بالعنف وهو يلين حتى مع خصمه ويهش في وجه من يكرهه. فكما أنه يحسن معاملة كل إنسان على اختلاف الدين واللسان، يجب أن يعامل على هذه الصورة، فإذا لم يلق مثل هذا من مخاطبه وعشيرته وشريكه ينفر منه في باطنه، ولا يظهر له عداوة ولا خصومة على الأغلب لأنه اشتهر بركة الحاشية واللطف والأدب، مثله في ذلك مثل ابن القاهرة. لعهدنا، وعلى منوال هذا ينسج الدمشقي فيما ينقصه من مقومات الحياة العصرية.

ودمشق والقاهرة تتشابهان كثيرًا. ولو كان لدمشق من ينظم شئونها تنظيمًا فنيًا ويحمل جميع طبقاتها على مراعاة القوانين - وحب القانون يقل في أبنائها كما

يكثُر فيها العطف على المسيء يوم تحق عليه العقوبة - لجاء من مدينتهم أجل مثال في العواصم العالمية.

واشتهر النساء الدمشقيات بجمال طلعتهن، وحسن هندامهن، ورقيق لهجتهن، وهن في الإجمال ربات بيوت، ومربيات أولاد، عُرِفن بصبرهن وجرأتهن على الاغتراب، وإذا اغتربت الدمشقية كونت لها بيئة خاصة، كأن تؤلف من بنات بلدها مجتمعاً، وتطبع البيت الذي تدخله بطابعها من النظافة وحسن الإدارة والاقتصاد على الأكثر، ومنهن أوانس وعقائل رحلن إلى القاصية وما نزلن عن مشخصاتهن بعد طويل الاغتراب، ولا نسين أهلهن وديارهن، ويزداد عطف الدمشقي على الدمشقي والدمشقية على الدمشقية كلما تئات الديار التي صاروا إليها.

وإن الزي الذي تتزيا به المرأة الدمشقية ليسري إلى نساء القطر على أسرع وجه ويحظى بالقبول عندهن بدون مناقشة.

وذلك لأن الدمشقيات كن يسارن إلى النقل عن المرأة التركية وأمسين اليوم يقلدن المرأة المصرية، ويأخذن عن المرأة الغربية مباشرة، فيخرجن الزي الجديد كأنه من اختراعهن وبنات أفكارهن. وما تخترعه دمشق في هذا المعنى تقبل عليه النفوس، كما يقبل الغرباء على التزوج من الدمشقيات لصفات فيهن قد لا توجد في غيرهن.

وحجاب النساء يضعف مع الزمن، والسافرات فيهن قليلات إلى اليوم، وما سفر منهن إلا المتعلّمات من أهل الطبقة العليا والوسطى على الأكثر.

وعلى ذكر الأزياء لا بد من الإشارة إلى أن الدمشقيين اقتبسوا الزي الغربي جميعاً. والطربوش لباس الرأس عندهم كالمصريين، والقبعة مستعملة على قلة، ويقل لبس العمامة والعقال والكوفية سنة عن سنة في دمشق وغوطتها. وقد قلدت الغربيين في معظم مرافق حياتها وفرش بيوتها وتلقفت مصطلحات أهل الحضارة.

أما عادات الدمشقيين فهي خليط من العادات العربية القديمة والغربية الحديثة ويدخلها التعديل على مر السنين، وكثرة اختلاط الدمشقيين بالأمم الأخرى. ومن عاداتهم كسائر بلاد الشرق الجيد النافع ومنها القبيح الضار، والقبيح يزول بالتدريج.

والاحتفال بالأفراح والأتراح صائر حتماً إلى الاقتصاد، وقد كانت من قبل إلى الإسراف والبذخ، ويراعي الدمشقي الحالة الاقتصادية على كل حال، ينام إذا أكسدت سوقه ويتبته إذا نفقت.

الحياة الأدبية والفنية والصناعية

العلم والأدب في دمشق:

ليس في الإمكان استقصاء أسماء جميع من نبغوا في دمشق قبل الإسلام بالعلوم والفنون. وقد عرفنا منهم بولودرا المهندس الدمشقي الذي أقام عمود تراجان في رومية وبني جسرًا على نهر الدانوب (الطونة).

ومنهم بوسانياس عالم المؤرخين في عصره، والقديس يوحنا فم الذهب الدمشقي رجل البلاغة والوعظ، وإليه نسبت الكنيسة العظمي التي أصبحت في الإسلام الجامع الأموي فيما روى بعضهم.

ويقول سينيويوس في تاريخ الحضارة: «حفظت في مدارس الروم في دمشق والإسكندرية علوم اليونان من فلك وجغرافيا ورياضيات وطب». أما نحن فمن المتعذر علينا أن نشير فقط إلى النوابع منهم في هذه الفنون، فمن الأخبار ما لم يدون ومنها ما دون وضاع، وتاريخ هذه الديار قبل الإسلام يصعب تمحيصه. ولم يكن السريان أصحاب البلاد دون الرومان واليونان في الرغبة في العلم، وكانوا منذ انتشرت النصرانية يجعلون من أديارهم بيوت علم وحكمة، وكانت آداب السريانية تدرس بعناية منذ القرن الخامس.

واشتهر اليعاقبة والنساطرة بالعلم، وكان علماء النساطرة أكثر عددًا، واليعاقبة أكثر رسوخًا وتبحرًا. وجميع الشعوب التي تداولت حكم هذه المدينة كانت لها يد باسطة في العلوم المعروفة لعهداها. وفي الجاهلية -أي قبيل الإسلام- كان يختلف إلى دمشق رجال من شعراء العرب فينزلون على الرحب

والسعة على أمراء الغساسنة وغيرهم من العرب، ومنهم حسان بن ثابت شاعر الرسول، نزل في الجاهلية على جبلة بن الأيهم ملك غسان فأكرم وفادته، ذلك لأن جبلة كان أيضًا شاعرًا مجيدًا وكذلك بعض أهل بيته، ومنهم امرؤ القيس والمتلمس، ونزل في الإسلام بعض الصحابة والتابعين وآل البيت في دمشق وتديروها، وشغلت طائفة منهم بهذاية الخلق والقضاء بينهم، وهم الذي وضعوا أساس العلم العربي في هذه الأرض. وكثر العلم في زمان أمير المؤمنين معاوية فأصبحت دار قرآن وحديث وفقه. كان يأتي بالعلماء من القاصية فينزلون دمشق، ومن دعاهم إليها أمد بن أمد وعبيد بن شربة الجرهمي، وطلب إليهما أن يحدثاه بأخبار القدماء، وأمر بعض كتابه أن يدونوا كلامهما، فكان أول تاريخ وضع في الإسلام.

ومعاوية أول من وضع الكتاب والكتب لتعليم كلام العرب، وأول من أنشأ بيت الحكمة. وانتشر العلم على عهد عبدالملك بن مروان، وكان من أوعية العلم ومن بلغاء العرب كسائر أهل بيته، وكان متسعًا في المعرفة والتصرف في فنون العلم والفصاحة، وكان "سنان قريش وسيفها رأيًا وحزمًا وعابدها قبل أن يستخلف ورعًا وزهدًا" وهو الذي نقل الدواوين إلى العربية وكانت بالرومية في الشام وبالقبطية في مصر وبالفارسية في العراق، وهو أول من أحدث ضرب الدنانير والدرهم في الإسلام.

وشعراء هذا القرن في دمشق من أصل عربي، ومنهم من كان يفد على بني أمية ويرحل بعد مدة. ومن الشعراء الأخطل ونابغة بني شيبان. ومن العلماء أبو الدرداء القاضي، وهشام بن إسماعيل أول من أحدث رواية القرآن بدمشق، وأبو إدريس الخولاني ويشر بن الوليد الأموي، كان يقال له عالم بني مروان،

«وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً وفصيحاً جامعاً وجيد الرأي كثير الأدب، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء». ولقبوه بحكيم آل مروان وعالم قريش. وهو الذي زهد في الخلافة وعشق العلم، وأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب إلى الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهو أول من أنشأ خزانة كتب في الإسلام، والأرجح أنها كانت في دمشق. وأمر عمر بن عبد العزيز بنقل كتاب أهرن بن أعين في الطب إلى العربية، وكان فيها روح بن زنباع ورجاء بن حيوة من رجال العلم والسياسة، وغيلان بن مروان أول من قال بالقدر، ومن علمائهم في القرن الثاني والثالث مكحول وعبد الله بن عامر أجد القراء السبعة ويحيى بن يحيى الغساني ويحيى بن الحرث الزياتي المقرزي، وعليه دارت قراءة الشاميين، والوليد بن مسلم وصعصعة بن سلام كان أول من أدخل علم الحديث إلى الأندلس ومحمد بن الوليد الزبيدي. وأبو الحكم وابن أثال وعيسى بن حكم وتياذوق، وهؤلاء الأربعة أطباء. ونشأ مثلهم من النقلة فانتقلوا في القرن الثاني إلى العراق وهناك ظهرت خدمتهم للعلم واللغة العربية. وواضع أساس الكتابة بالعربية عبد الحميد بن يحيى الكاتب وعشران كانوا على طريقته في الكتابة.

وقام في القرن الثالث والرابع والخامس أمثال هشام بن عمار خطيب دمشق وقاريا وفتيها ومحدثها وأبو مسهر عبد الأعلى الغساني وأبو زرعة الدمشقي ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة. وعمر بن حسن الخرقى وعبد الله بن عطية المقربي الدمشقي المفسر كان يحفظ خمسين ألف بيت من شعر العرب في الاستشهادات على معاني القرآن واللغة، ومحمد القيسراني المهندس وأبو يعلى التميمي المعروف بابن القلانسي المؤرخ وعلي بن داود الداراني الخطيب.

وجاء في القرن السادس والسابع والثامن أيضًا رجال في علوم الدنيا والدين خلدوا لهم ذكرًا مؤبدًا. وكان في دمشق أيام صلاح الدين ستائة فقيه يعطيهم من صدقاته. ومن الأطباء والمهندسين يحيى البياس ومحمد بن أبي الحكم وابن النقاش وابن البذوخ وابن المطران وعبد الكريم الحارثي المهندس وعلي بن غانم والحافظ بن عساكر محدث الشام ومؤرخها صاحب التاريخ المشهور والحسين الأسدي مسند دمشق وابن الخياط وطراد بن علي وابن منير وابن عُنَيْن والوأواء وعرقلة (حسان بن نمير) وابن نمير العقيلي، وهؤلاء من كبار الشعراء. ومن المهندسين إبراهيم بن غنائم، ومن المؤرخين ابن خلكان وابن أبي أصيبعة وأبو شامة وسبط ابن الجوزي، ومن العلماء المقتنين عبد المنعم الجلياني وعز الدين الإربلي وشمس الدين الخوي ورفيع الدين الجيلي وشرف الدين الرحبي والدخوار واللبودي صاحب دار الهندسة وعلي بن أبي الخزم وابن النفيس وابن المؤيد العرضي والدولعي الخطيب وابن الساعاتي الشاعر وفتيان الشاغوري الشاعر والحافظ الزملكاني والحافظ اليلداني. ونبغ كثير من المحدثات الدمشقيات ضاهين بعلو السماع الرجال، ومنهن من جمعن إلى الحديث علم الأدب وقرض الشعر.

وكان في القرن الأخير المصلح شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية والحافظ البرزالي والحافظ المزي والحافظ الذهبي. وجاء رجال برزوا في التاريخ والعلوم الفلكية والرياضية والطبيعية مثل ابن كثير وابن فضل الله العمري والصلاح الصفدي وشيخ الربوة وابن مفلح وابن شاکر وابن الشاطر الفلكي ومحمد بن إبراهيم المهندس والخطيب جلال الدين القزويني وسليمان بن داود الطيب وبدأت طلائع الانحطاط في العلم والأدب في القرن التاسع وما بعده، ومع هذا ما خلت دمشق في دور من الأدوار من أعلام يشار إليهم

بالبنان في جميع العلوم الدينية ومعظم العلوم الأدبية والمدنية. ومن المشهورين ابن قاضي شهبة والحسابي وابن عربشاه ويوسف بن عبدالهادي وهؤلاء اشتهروا بالتاريخ وإبراهيم البقاعي وأحمد الطولوني المهندس وابن الجزري المقري والبدر الغزي المؤرخ ومحمد بن علي بن طولون المؤرخ وعائشة الباعونية المحدثه الشاعرة صاحبة التأليف والنجم الغزي المؤرخ وأحمد بن سنان القرماني المؤرخ والحسن البوريني وابن الشاهيني والصفوري وابن الحكيم صاحب والشاعران المنجكي والكيواني وحامد العمادي وأحمد الميني والمحيي والمرادي وعبدالغني النابلسي وكمال الدين الغزي ومحمد العطار صاحب الرسائل بالفنون الحربية والفلك والرياضيات ومحمد عابدين صاحب الحاشية في الفقه وعبدالغني الميداني الفقيه النظار ومحمد الطنطاوي وميخائيل مشاقه ومحمود الحمزاوي وطاهر الجزائري ورفيق العظم وجمال الدين القاسمي وعبدالرحمن شهبندر وتوفيق طارق المصور المهندس وغيرهم.

وهبت دمشق بعد انتشار القانون العثماني سنة ١٩٠٨ وتمتع العناصر العثمانية بحرياتهم، تريد أن تستعيد بالعلم سالف مكانتها وتستمر في تخريج رجال ممتازين على ما كانت في سابق العصور، فتعلم مئات من أبنائها العلوم العالية في ديار الغرب ولا سيما في فرنسا، فجاء منهم نوابغ في الطب والحقوق والتعليم والهندسة والزراعة والكيمياء وغير ذلك، ومنهم من وضعوا الرسائل والكتب التي لا تقل عن كتب المصريين المحدثين، وأما العلوم الدينية فأرادوا إحياءها فأسسوا بأنفسهم عدة مدارس تعلمها على الطرق الحديثة في الجملة، ويرحل طلاب الاختصاص إلى القاهرة يتلقون في الأزهر ودار العلوم والجامعة ما ينقصهم من علوم الدين وغيرها. وفي أحيائنا طائفة كبيرة من الرجال الذين تعلموا وعلموا في مختلف العلوم والفنون والصناعات حتى قال

هريو: « لقد أصبحت دمشق بفضل همة علمائنا (علماء فرنسا) مركزاً علمياً من الطراز الأول بمكانتها».

والتعليم في دمشق منتشر كثيراً ويقل فيها الأميون وفيها مدارس مختلفة الدرجات وجامعتها السورية هي الجامعة الوحيدة في العالم التي تدرس الطب باللغة العربية. وقد زسخت العربية خطابة وكتابة وشعرًا في العهد الأخير رسوخًا لا عهد لها بمثله منذ أجيال، والفضل في ذلك للمدارس والجوامع والمعابد والصحف ولرخص الكتب والمجلات.

الفنون الجميلة

نشأت الفنون الجميلة بدمشق في زمن يصعب تعيينه، وكانت الأمم التي استولت زمنًا طويلًا على هذه العاصمة كاليونان والرومان من أقدم الأمم التي أتتها بموسيقاها، ولما انتشرت النصرانية في القرن الثالث الميلادي عني منتحلوها بالموسيقى في كنائسهم عناية اليهود بها من قبل في بيعهم.

وكانت موسيقى العرب لأول أمرهم إلى السذاجة شأنهم في معظم أوضاعهم، فلما جاءوا هذه العاصمة أخذوا من موسيقى الروم ومن موسيقى الفرس وتوسعوا وأجادوا حتى قال بعضهم: ولم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب.

والغناء العربي في دمشق قديم منذ كانت غسان وتنوخ فيها، وكان غناؤهم الإنشاد والترنيم والحداء، وكان التقليل وهو الضرب بالدف والغناء مما يعمد إليه في استقبال الولاة عند قدومهم المصر. وحدثنا التاريخ أن بعض خلفاء بني أمية وأمراءهم وساداتهم في دمشق وضعوا ألحانًا وأولعوا بالموسيقى والغناء،

ومنهم عمر بن عبدالعزيز فإنه دُونت له صنعة في الغناء أيام إمارته على الحجاز وكان أحسن خلق الله صوتاً، ومنهم يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد، وما زالت الموسيقى والغناء ينتشران والدمشقيون يزدادون غراماً بهما كلما ارتاحوا وارتاشوا، وكان لهم في كل قرن أناس مشهورون ممتازون، ولكن التاريخ أغفل نقل أخبار هذه البطوائف من الناس. ذكروا أنهم تفتنوا كثيراً في الإيقاع والآلات ومنهم من عمل أرغناً، وهو غير الذي عرفه الإفرنج، يعمل من ثلاثة زقاق كبار من جلود الجواميس يضم بعضها إلى بعض.

وفي القرن السادس كثر الموسيقيون والطنبوريون والقانونيون وظهر نوابغ في هذا الفن.

وفي القرن الثامن نبغت غير واحدة من المغنيات، وما خلعت هذه المدينة من عوادة وطنبورية وكراعة وربابية وصناجة ورقاصة. وكان الخلفاء العظماء يتنافسون فيهم ويُفضّلون عليهن وعلى كل صاحب معرفة بهذا الصنف. ومن الرجال والنساء من كانوا يمارسون هذه الصناعة للتكسب وهم المحترفون، ومنهم من يولع بها حباً بها وهم الهواة.

وأدركنا الدمشقيين لا تخلو سهرة من سهراتهم ولا نزهة من نزهاهم ولا فرح من أفراحهم من موسيقيين ومغنين وأحياناً مغنيات، وما كان بعض أرباب المظاهر يستنكفون من رفع أصواتهم بالإنشاد والغناء ولا من الضرب على العود والطنبور والقيثارة.

وفي العهد الأخير اقتبست الموسيقى فنوناً من الموسيقى الغربية، وكادت دمشق في موسيقاها وغنائها تكون عالية على مصر تقتدي بها، مع ذلك بقيت لها

بقايا خاصة بها. وما برح للموسيقى والإنشاد عند بعض أرباب الطرق شأن عظيم كشأنها منذ القديم وإلى اليوم في الكنائس والبيع عند أهل النصرانية جميعاً.

أما فن التصوير فالعرب كانوا فيه عالة على الروم والرومان، والإسلام لأول أمره شدد في التصوير، ولما ذهبت الخشية من عبادة الصورة أخذ التصوير ينتشر في البلاد الإسلامية، وقد صنعت الصور في دار مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وكل منهما ولي إمارة المدينة وكانا من التابعين، مما دل على أن التصوير كان شائعاً منذ عصر الصحابة، وكان للخلفاء في قصورهم صور وتماثيل. ولم يحظروا بادئ بدء إلا تجسيم الصور الآدمية، وعمدوا إلى التصوير في الكتب والثياب والجدر بكل ما يغري ويفتن، وكانوا على كل حال مقلين من صور الآدميين، وقد ظهر في مصر في عهد الأيوبيين والمماليك مصورون شاميون أبدعوا في التصوير على الجدران وعلى الكتب. وكان من الحفامات المصورة بدمشق حماد سيف الدين، وصفه عمر بن مسعود الحلبي المعروف بالمحار بقوله:

وخط فيها كل شخص إذا	لا	حظته	تحسبه	ينطق
ومثل الأشجار في لونها	ولينها	لو	أنها	تورق
أطيّارها من فوق أغصانها	بودها	تنطق	أو	تزعق
وهية الملك وسلطانه	وجيشه	من	حوله	يحدق
هذا سيف وله عبسة	وذا	بقوس	وبه	يعلق

وللمحار أيضًا في تمثال من النحاس على صورة شخص يخرج الماء من أعضائه، وكان على الأرجح في بعض دور دمشق:

وشخص على ساقه قائم مشير بساعده الأيمن
 له صورة حسنت منظرًا على بدن صيغ من معدن
 يكاد يحدث جلوسه ولكن به خرس الألكن
 إذا بث من صدره سره فتسبقه أدمع الأعين
 ولم يبك حزنًا على نازح ولم يصب شوقًا إلى موطن
 صبور على الحر والبرد لم يسر بحال ولم يحزن

وجاءت العصور الحديثة فكثرت النقاشون والمصورون، ومنهم المصورون
 على الخزف، تجدد نماذجها من أعمالهم بدار الآثار العربية بمصر. ومن
 النقاشين من ينقش على المعادن كالذهب والفضة والنحاس، ومنهم من
 ينقشون المنازل ويعرفون بالدهانين.

وعدوا الرقص من الفنون الجميلة، وقد ارتقى منذ عرف تاريخ العرب إلى
 أن فتحوا الأندلس ونقلوا إليها رقصهم الذي لا يزال إلى اليوم شائعًا فيها بعد
 خروجهم منها قبل خمسة قرون، وكذلك الموسيقى الأسبانية، يرقصون
 بالصنجات كما كان يرقص الراقصات في دمشق، وكان لهم في الشام رقص
 يسمونه السماع يرقصه عدة أشخاص على نغمات متساوقة من الأوتار وترديد
 جميل من الموشحات فقط، وهو أشبه بالأوبرا أو الأوبريت عند الإفرنج أي
 القصائد الملحنة التي تمثل على نغمات الموسيقى، ويزيد رقص السماع على
 الأوبرا كونه ترفع فيه الأصوات بأنغام مألوفة، وقال بعض العازفين: إن رقص
 السماع هو الذي يعرفه الإفرنج بالباليه.

ونبغ في دمشق في القرن الماضي سنة ١٢٨٢ هـ رجل من أبنائها البارعين
 في الموسيقى والغناء ونظم الشعر، وهو أبو خليل أحمد القباني، فأنشأ قاعة

للمثيل حازت القبول عند العارفين. ثم اضطهدته الحكومة بإغلاق محله، فانتقل بفرقة إلى مصر ووضع هناك أيضًا أساس التمثيل العربي الذي كان وضعه في دمشق على غير مثال احتداه. ومن تأليفه روايات إلى اليوم تمثل في دور التمثيل وتجدها قبولاً من نفوس المشاهدين. وكان لرقص السماع في رواياته التمثيلية قسط عظيم من العناية.

وحاول كثيرون من أربعين سنة تأليف فرقة للتمثيل فأخفقوا مع أنه خرج من دمشق عدة ممثلين بارعين تفرقوا في أرجاء مصر والشام.

صناعات دمشق

عُرفت دمشق في معظم عصورها بأنها مدينة صناعية، كما هي مدينة زراعية تجارية. ويرجع توفيقها في صناعاتها إلى وفرة المواد الأولية المستخرجة من أرضها، وإلى أن كل صنعة يتسلسل العمل بها في بيوت مخصوصة على الأغلب. فالصوف والقطن والكتان والقنب والحريز والوبر والمرعزي تنسج منه بزها وديباجها وأطلسها وأعبتها وأغطيتها، والحديد والفولاذ والنحاس تصنع منه نحاسها وآلتها وقربها، ومن أخشابها تصنع مقاعدها ومناضدها وأصونتها ومرافق بيوتها وقاعاتها، ومن تربتها تعمل زجاجها وآيتها وقاشانيها وآجرها. وهكذا في كل ما تبنت الأرض، ويدفن في بطنها من المعادن. قال الإدريسي: ولكل بلد ومدينة خاصية تحتفظ بها في نوع من الصناعة، وأهم ما كان منها في مدينة دمشق.

كانت هذه المدينة في القرن الرابع الهجري جامعة لضروب من المحاسن وصنوف من الصناعات، وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة، يحمل منها إلى كل بلد ومصانعها في كل ذلك عجيبة، وقد اجتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة، ومحاسن جمّة فلا يعادلها جنس ولا يقاومها مثال، وقيل: إن اسم الدمقس مشتق من اسم مدينة دمشق، وأن الثياب التي يسمونها (داماسكو) وتصنع برسوم في جسم الثوب معمولة غليظة تنسب إلى دمشق. وكان الغزل والنسج مما يعانیه جمهور الناس في الحاضرة والضاحية حتى شهد لهم بالبراعة في ذلك. ولكل قرية ولكل مدينة اختصاص بصنع شيء تعرف به ويعرف بها وينفق ما يحاك من ذلك في بلاد الشام، وما زاد يصدر إلى الخارج.

قام في القرن الماضي والقرن الحالي أناس ممن يعانون صنع الثياب والنسيج من القطن والصوف والحرير فوقفوا بما اخترعوا من الأنوال في وجه الثياب المصنوعة في الغرب، وعملوا «الديما» و«الألاجة» و«الशल». وما برحت الصناعات الشامية على كثرة منافسة البضائع الأجنبية لها رائجة لمتانتها وجمالها، وثبات ألوانها، ورخص أسعارها، فإن من يعمل في دمشق وضاحيتها من الشال والأطلس والأعبئة والملاءات والسجوف والشفوف القטיפية المخمل، ما هو زينة القصور وربات الخدور. ومن ذلك معامل كثيرة في هذه المدينة. وأنشئ فيها معملان لصنع الجوخ، لا تقل جودة مصنوعاتها عما يصنع من نوعه في معالم الغرب. وتوفرت الأنوال لصنع البسط والطنافس، تروج مصنوعاتها لرخص أسعارها. وكانت صناعة زركشة القصب رائجة إلى القرن الأخير، وهي مما كانت دمشق تختص به.

وخصت أيضا بدبغ الجلد تعمل منه الأجدية والسروج والروايا والزكرات والصناديق وما شاكل ذلك وهي جميلة ورخيصة. وأسس مؤخرا معمل عظيم لدبغها أخذ يخرج الجلد الجيد الذي يباع ويروج في الشرق والغرب.

واشتهرت دمشق بالنجارة منذ الزمن الأطول، وما زال أهلها يتفنون فيها ويماشون الزمن في نشوئها، ينجزون الأبواب والدرفات والنوافذ وأصونة الثياب وخزائن الزينة والمناضد والكراسي والمقاعد والأرائك والمكاتب والإطارات والمغاسل، الصناديق والتوبيت والرحال وألواح درس الحبوب وأعواد الطرب. تعمل من خشب الجوز والزيتون والليمون والميس والعرعر والدردار والشربين والتنبوب والسرو والصنوبر مما يكثر في الأرض الشامية،

أو من خشب الجوز الأميركي والخشب الروماني والقبليقي وغيرها من الأخشاب المجلوبة.

كان يعمل كل ذلك بأدوات بسيطة تحركها الأيدي، وقد أقيمت معامل لنشر الأخشاب وتقطيعها وتجفيفها وتليينها وتزيينها ورصفها ونقشها. ومما يدل على متانة خشب الحور المعروف بالرومي تلك النماذج التي بقيت منه محفوظة من القرن الخامس في دار الآثار، وكانت الصناديق تصنع إلى القرن الماضي من خشب الجوز فتقوى على القرون، وتحفر فيها نقوش وصور جميلة، ومن قبل كانت صناديق السرو مثال الصناعة المتينة، ومن الخشب المتين كانت تعمل الحلقات في القصور والقاعات القديمة. وقد بيع كثير من هذه الصناديق وهذه الحلقات من الغرباء وهم يعدونها من أطرف الطرائف، لما خصت به من المتانة والجمال. وسر الإبداع في هذه الصناعة أن النجارين كانوا ينجرون أصلب الخشب، فأصبحوا اليوم يعتمدون على الكريش والشوح، وفيهما مواد قطرانية وتفعل فيما يصنع منا الرطوبة والحرارة، وهذا الخشب سهل على النجر وسريع إلى البلي.

وكان الدهان من الصناعات الدمشقية المتفردة بها هذه المدينة ويكون ذا ألوان ثابتة لا تنصل بالحرارة ولا بالبرودة، ولا ينال منها السوس ولا الحشرات. والدهان المعروف اليوم بالعجمي مما تفردت به دمشق. وأهل هذه الحرفة يزينون بما يدهون اليوم قصور العظماء في الشام ومصر والعراق ويعملون منها مناخذ ومقاعد وبعض أدوات الزينة، فتجيء طرفه من الطرف.

وأزهزت صناعة التنزيل في خشب الخزائن والأصونة والمقاعد والكراسي بالصدف أو بقطع الليمون، وكانت مصنوعاتهما تزدان بها الأندية والردهات

وتباع منها مقادير عظيمة في أميركا وغيرها. ويقال لصناعة الحفر والتنزِيل (الأبلق) وهي من أجمل الصناعات أيضا، تدهن الحجر بالنقوش والأشكال ويحفر ويدهن بصب الأصباغ في الشقوق، ثم يجلي ويصقل، فيأتي صبغها براقا ثابتا كأنه من أصل الحجر. وكانت الأصباغ القديمة في الجدران والأبهاء ثابتة ذات بهاء ولمعان، وهي من نباتات البلاد وموادها، فلما نزعته الأصباغ الإفرنجية الرخيصة التي تنصل بسرعة، بطل استعمال الأصباغ القديمة، وكاد يفقد سرها ويندمج في صناعة التنزِيل صناعة النقش بالجبس على الجدران. ومنها نموذجات صبرت على حوادث الدهر.

لما حرق الجامع الأموي حريقه الأخير، أخذ العارفون يفكرون في إرجاعه إلى رونقه السابق، فأحييت صناعات دقيقة في النقش والحفر والترخيم كادت تضمحل، ومحراب جامع بني أمية مثال ظاهر منها. واخترع إذ ذاك أحد أرباب الصناعات مركبة تجرها بضعة ثيران، فتنقل الأعمدة والسواري من مقالعها. مهما عظمت على أيسر وجه. والحاجة أم الاختراع.

ومن القديم كانت دمشق تفاخر بما تصنع من السيوف المحلاة لما اختصت به من الصفاء والاخضرار، تكتب فيها آيات وأشعار بياض الذهب، ومثل ذلك الخناجر والرماح. وتطريق الحديد مما عرفت به دمشق قبل الإسلام، وما زالت صناعته متوارثة في بيوت معروفة إلى اليوم. وذكر التاريخ أن الإمبراطور ديوقلسيانوس الروماني أنشأ في دمشق في القرن الثالث للميلاد معملا للأسلحة، فاستدل من ذلك أن المستخرج من حديد هذه الديار كان كثيرا يفي بحاجة الدولة والأمة. والقيانة أول القردحة أي صنع السلاح، مما كانت له أسواق رائجة، عرف الصليبيون ذلك ونسبوا في عهدهم إلى دمشق، وكان

العرب نقلوا هذه الصناعة -أي صناعة السيوف- إلى الأندلس، فنسبت إلى دمشق حتى يوم الناس هذا، ويقال لها بلغات الإفرنج إلى اليوم (دامسكيناج)، (داماسكينري) أي تنزيل الذهب والفضة في الفولاذ. وكانت الدروع والخوذ والسابرية تصنع في دمشق حتى لكأنها كانت معملاً عظيماً من معامل السلاح على الطريقة التي وصلت إليها أدوات القتل والتوقي منه في تلك الأعصر.

وتفنن صناع هذا تفنناً شوهده أثره في صناعات القذائف والنسافات. فقد ذكر المؤرخون أن الصليبيين يوم عكا اصطنعوا ثلاثة أبراج من خشب وحديد وألبسوها الجلود المسقاة بالخل، وجعلوها على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر ويتسع سطحه لأن ينضب عليه منجنيق، فأراد صلاح الدين إحراقها وجمع الصناع من الزرايين والنفاطيين، وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي، فذكر أن له صناعة في إحراقها وأنه إذا حصل له الأدوية التي يعرفها، وطبخها مع النفط في قدور من النحاس وقذف بها الأبراج تحترق لساعتها وكذلك كان.

وما برح كل ما يصنع من الحديد يعمل في معامل دمشق كالمردان والمغازل والصنارات والأسياخ والعقافات والقيود والزررد والمباضع والمبازع والشارط والآنية والنعال والمسامير والمعاول والمساحي والمناجل والمطارق والأقفال والمفاتيح والمغالق والمناصب والملاقط والسكاكين والمدى والمناشير والمراكن والمراجل والدلاء والبراميل والمقالي والمواسي والمبارد والصناعات والدرابزون والكلاليب واللوابب والقدوم والفتوس والمقاريض. وفي العهد الحديث أدوات المركبات والعجلات والسيارات والدراجات والمضخات والمدفئات

والسكك والمحارث والآبار الارتوازية وغيرها، والاعتماد فيها كلها على الحديد المستبضع من الغرب.

وكان أرباب الصناعات في القديم يميزهم ما يستخرج من حديد البلاد ومن النحاس تعمل أواني البيوت كالقدور والمغارف والأطباق والمناقل والدلات (أوعية القهوة) والطسوت والصواني والصحون والصحاف والمصافي والملاعق والسطول والمساخن والهواوين والمدقات وغير ذلك. وقد أنشئت أوائل هذا القرن معامل لصنع أواني النحاس المكتب والمعرق، ومنها الزهريات والمصاييح والثريات والعاليق والكئوس والمباخر والقماقم والصحاف والبواطي وبعض أدوات الزينة، فراجت رواجًا عظيمًا في الممالك الأجنبية، وتنافس أرباب الذوق في اقتنائها، ومنها ما يعمل بالميناء ومنها ما يعمل بالفضة وهي على غاية الإبداع.

واشتهرت هذه العاصمة قديمًا بالزجاجية (صناعة الزجاج). وكان يضرب المثل بصفائه، يتخذ للزخرفة والزينة، ومنه الأكواب والأنية على اختلاف ضروبها، والأباريق والجمامات والسكرجات والمضخات والأقداح والقوارير والكيزان والبواطي، كانت لها معامل مهمة في دمشق. وفي الحرب الأخيرة أخذت معامل الزجاج تصنع الكئوس والفناجين وزجاجات المصاييح وصراحيات الماء وغيرها، وراجعت رواجًا كثيرًا واستغنت بما صنعت عن مصنوعات تشيكوسلوفاكيا وغيرها. وكانت معامل الزجاج ممتدة على طول الجامع الأموي، رآها الرحالة بوجيوجي سنة ١٣٤٦م. ويظهر أن البنادقة توصلوا إلى سرّ هذه الصناعة في القرون الوسطى وأنشئوا يخرجون أنواع

الزجاج، ومنها المرايا التي بطل عملها بعد ذلك هنا، ثم أخذ بعضهم بأخرة يقلد المرايا المصنوعة في الغرب فتباع لرخص أثمانها.

وزهد أرباب هذه الصناعة في صنعتهم، لما بدأ الغرب يخرج المصنوعات الزجاجية رخيصة الثمن بديعة الشكل، ومن قبل كانت المصنوعات الزجاجية من عمل البلاد رائجة. وتعلقت الهمم قبل الحرب العالمية بتأسيس معمل للزجاج وأخرج مصنوعات جميلة وحال الاختلاف بين المساهمين دون سيره كما كانت اتجهت النية إلى تأسيس معمل للسكر فحال رخص أثمانه دون المضي في إنشاء معمل لاستخراجه.

كان يعمل من الخزف القلل والخوابي والاجانات والدوارق وأصاصي الزهور وغيرها. ويعمل القاشاني لرصف الجدران والمجاريب والحمامات والفساقي والسلسبيلات والباذهنجات والقماقم والزهريات وغير ذلك. ويظهر أن سر صناعة القاشاني فقدت من دمشق منذ قرنين بانقراض البيت الذي كان مستأثراً بصنعه.

وفي القرن الأخير نشأت صناعة جديدة كأنها أخت القاشاني القديم، وهي الخزف الملون يتخذون منه بلاطاً للدور والغرف والمستحاثات، وقد تفننوا في صنعه فأجادوا، وله معامل كثيرة، وله رواج في الأقطار المجاورة لمهاودة أسعاره وجماله وصلابته، وبه استعوض في أكثر العماثر الجديدة عن الأحجار الملونة في التبليط وعن رخام إيطاليا. ومما اشتهرت به دمشق صناعة الصياغة، أي صناعة الذهب والفضة، والتفنن في تصويرها بوضع الأحجار الكريمة خلالها، تعمل منها الأكلة والتيجان والأقربة والشنوف والخواتيم والدمالج والقلائد والأطواق والخلاخل. ولما كسدت مصنوعاتنا هنا جلا كثير من

صناعها إلى بلاد أخرى. ومع هذا لا يزال ما يخرج الصياغ على اختلاف أسائه وأشكاله وأحجاره رائجاً مقبولاً، ويتوقف رواج هذه الصناعة على تكاثر النقد من الذهب والفضة في الأيدي وتوفر أسباب الغنى.

ومن أهم الصناعات صناعة البناء والنحت، ومدارس القرون الوسطى في دمشق مثال بديع ما نحت ورصف. وقد ساعد على تجويد البناء تعدد مقالع الحجر بالقرب من المدينة، وتسلسل صناعة النحت والبناء والهندسة في بيوت بعينها. ولما اخترع الأسمنت المسلح بدأ القوم يعتمدون عليه في البناء أكثر من الجبس والكلس والآجر، فأنشئ لصنعه معمل في ضاحية المدينة، وثبت أن مادته قوية جداً، وهو يقوم بحاجة البلاد الداخلية.

هذا إجمال حال الصناعات بدمشق، وغالبها تتبدل عليها أيدي الصناع من الواحد بعد الواحد إلى أن ينيف على عشرة صناع حتى يتم، وقد قيل إن صناعات دمشق تبلغ نحو ٣٤٠ صنعة وحرقة. ولا تزال تحدث صناعات وتموت صناعات. فمن الصناعات التي أحدثت خلال الحرب العالمية الأخيرة حفظ الثمار والبقول في علب (كونسروا) وقد أنشئ لها معمل في دمشق، وصادراته تباع في بلاد العرب وبلاد الغرب. وسبب الإقبال عليه جودة ثمار دمشق ولذيذ طعمها. ومن الصناعات المهمة التي دثرت ولم يعد يعانيها أهلها منذ زمن طويل الوراقة أو صنع الورق. وكانت لها معامل في دمشق منذ القرن الثاني. وقد تعلم صنع الورق في دمشق أسيران فرنسيان على عهد الحروب الصليبية، ونشرا هذه الصناعة في فرنسا ومنها انتقلت إلى أوروبا. وكان العرب حملوا سر هذه الصناعة معهم منذ أوائل القرن الثالث إلى الأندلس وصقلية. ومن هاتين الجزيرتين كانت أوروبا الوسطى والغربية تستبضع ورقها قرونًا.

ومن الصناعات التي كان لها شأن عظيم في دمشق ويعيش بها خلّاق، وذلك قبل اكتشاف النفط (البترول) واختراع الكهرباء، صناعة صب الشمع وسكبه وقل من يعني بها اليوم. وكانت تصنع في دمشق الشموع العظيمة التي تجعل على جوانب المحاريب في المساجد العظيمة كأنها سارية من السواري. وفي دمشق كانت تصنع شموع الحرمين الشريفين وتحمل إليها كل سنة. ومن الصناعات التي ضعفت لقلّة ما يصدر منها صناعة عطر الورد وما يستقطر من زهر دمشق. فهذه الصناعة كانت تصدر مقادير كبيرة منها إلى الصين والهند في القرن الثامن. وقد ذكر شيخ الربوة في كتابه «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» ما كانت تغل به هذه الصناعة من مال وما تنشره في موسم الزهر من الروائح الزكية في أماكنه بعد استخراج روجه، ووصف صورة استقطارها والأنبيق التي تستخدم لها.

ودعت الحاجة خلال الحرب الأخيرة وبعدها إلى إدخال صناعات جديدة أو إتقان صناعات كادت تفقد منها لقلّة من يرغب فيها.

وإنا رأينا اليوم ما قام من معامل النسيج والحياكة وما شاهدنا من معامل الجوخ والديباغة والخزف والأسمنت المسلح وحفظ البقول والشمار وصنع المربيات والحلويات، وغير ذلك من الأعمال التي برز أربابها فيها على ما شهد لهم بذلك أعظم العارفين بهذه المسائل في بلاد الغرب؛ إنا وقد رأينا هذا فلا يصعب علينا أن ندعى أن دمشق تخرج الآن جميع حاجياتها من مأكول وملبوس ومسكون ومفروش. وإذا اضطربت ذات يوم إلى الاكتفاء بما تخرج وما تصنع، لا ينقصها غير بعض الكماليات. وكل بلد مهما بلغ من رقيه ينقصه

شيء أو أشياء تجود عند جاره، ولا غضاضة عليه إذا قايض عليه، بما يستخرجه مما تفرد هو بصنعه.

وبعد فقد عرفت الشام في معظم عصورها بأنها بلاد صناعية أكثر منها تجارية وكانت مدينة دمشق تفخر بأنواع من الصناعات اليدوية النفيسة حتى في الأسواق العالمية، ومنها المصنوعات الحريرية والقطنية والصوفية التي كانت موادها الأولية من منتجات القطر، وكذلك المصنوعات الخشبية والنحاسية والفضية والجلدية التي عرفت بطابعها الشرقي وبسلامة الذوق والمتانة. ثم تطورت الصناعة بعد الحرب العالمية الماضية تطوراً يدعو للتفاؤل بأحسن النتائج، وكانت السبابة لهذا التطور مدينة دمشق إذ تطلع أهلها إلى إنشاء صناعات آلية (ميكانيكية) مختلفة لم يكن الشرق الأوسط يعهد نظيرها كصناعة الأسمت والثقاب (الكبريت) وحفظ الفواكه والخضراوات وصناعة الجوخ والحرير بأنواعه، وأصبحت هذه المعامل على حدائقها تضاهي بإنتاجها الصناعة الغربية التي هي من نوعها. كما أنشئت في حلب مؤسسة لصناعة خيوط الغزل ونسجها كانت عاملاً قوياً في إحياء مساحات واسعة من الأراضي بزراعتها من القطن الأميركي أو الهندي. وتبع ذلك في دمشق وحلب بالإضافة إلى الصناعات المار ذكرها وخصوصاً صناعة النسيج الحريري التي نمت نمواً مطرداً، تبعها صناعات التريكو والجوارب والقمصان الكتان والمستحضرات الكيماوية الصناعية والأدوية والمستحضرات الصيدلانية والمستحضرات الغذائية والمعكرونة والبسكويت والزبدة والساكر والشوكولاتة. والمصنوعات الحديدية والتليس بالمعادن والمرايا السكب والبلاط والجبس والدباغة الفنية والصباغة والمطاحن والطباعة والفرش (الموبيليا).

إن التجدد الذي أدخلته دمشق على صناعتها في غضون عشرين عام - رغم العقبات التي لاقتها بسبب الحواجز الجمركية ونكبتها بثروتها من جراء خسارتها بالنقد الأجنبي في سنة ١٩٢٠ والأزمات الاقتصادية التي توالت وأثرت في التجارة والزراعة والأراضي والعقارات - لجدير بإعجاب المتصفين. ولو أن الحكومات التي تولت الحكم في الشام اهتمت قليلاً بالمشاريع الصناعية وشجعته وحثتها لحصلت البلاد إبان هذه الحرب الضروس على ما يمكن الحصول عليه من الرخاء والتوازن الاقتصادي في الإنتاج الصناعي كما هي الحالة في بعض الأقطار المجاورة، على أن الوقت لم يفت والأمل معقود على مستقبل يقوم على استقرار يضمن ازدهاراً اقتصادياً، فتنمو صناعاتها وتجارها وزراعتها، وينعم أهلها بثروات القطر الطبيعية الكامنة التي لا تسنى ثروة لنا إلا إذا أثبتنا مقدرتنا في استثمارها.

تجارة دمشق

كان سكان هذا البلد بما فطروا عليه من المعية وذكاء قبل أن يدوي في أرجائه نبال هذه الحروب، يسمعون حسيستها وينظرون إليها كأمر واقع فأعدو عدتهم لمواجهة. ومنذ انقطعت العلاقات التجارية بين اليابان والولايات المتحدة أواخر عام ١٩٣٨ زادوا في مستورداتهم بقدر ما تصل إليه قدرتهم من مال وجهد وبقدر ما تمكنهم الاعتمادات الممنوحة لهم في البيوت المالية والمصارف الأجنبية، داخل البلاد وخارجها، مستفيدين من الدروس الاقتصادية التي ألفتها عليهم الحرب الماضية بين عام ١٩١٤، ١٩١٨. فما جاءهم أيلول عام ١٩٣٩ إلا كان عندهم وعلى أرضهم من مختلف أنواع البضائع والسلع التي تشتد الحاجة إليها ما يعد كثرة تضيق بها محال التجارة ومستودعاتها وأنابر الجمارك.

وما شاع نبال الحرب حتى سارعوا يطلبون إلى عملائهم ووكلائهم في وكوبا ومانشستر ونيويورك أن يبذلوا قصارى جهده في شراء ما يقع تحت أيديهم من البضائع مطلقين لهم العنان في غشيان الأسواق العالمية كيفما اتفق لهم السعر والشروط. وعندما دخلت اليابان الحرب وانقطعت البواخر التي كانت تجوب البحار إلى شواطئ الشرق الأدنى أخذ السوريون بعد أن نزل الحلفاء أرضهم يولون وجوههم شطر مرافئ الهند الجنوبية جاعلين من بومباي دار هجرة تجارية يحملون منها عن طريق الخليج الفارسي أولا وقناة السويس ثانيا ما تمس حاجتهم إليه من خيوط وأنسجة ومواد غذائية، فما عضتهم الحرب بقلبة كما وقع لهم في الحر الماضية وأحسنوا الاستفادة من كل معاونة يعاونها البريطانيون في كل بلد ينزلونه.

مضى العام الأول والعام الثاني من أعوام هذه الحرب ودمشق خائفة، كأنها تعيش بين أجفان الردى وهي يقظانة نائمة، فلم يتسع لها طريق العمل بشيء يتفق مع ميراثها الصناعي، وفي الأعوام التالية أخذت قدرتها على الإنتاج تزيد وكانت في زمن السلم تطفئ عليها المصنوعات الخارجية، والأعمال وليدة الحاجة وريية الضرورات.

ولما كان الشعب السوري تجاري بالفطرة، والمغامرات في دمه وروحه فقد تقلب في تجارته خلال هذه المدة صاعدا وهابطا، فإذا نبئ بما يشعر بطول الحرب ترتفع عنده الأسعار، وإذا ثبت له قصرها تهبط وتندنى.

وذهبت دمشق في هذه الفترة بقيادة الحركة الاقتصادية، وأخذت تعين الاتجاه هبوطا وصعودا وحركة وجمودا ومنها ينتقل هذا الاتجاه إلى كبريات المدن والحواضر، فهي أذن تستمع لكل ما يحمله الأثير من نبأ تقلب فيه الفكر، وتحكم به على الغاية، ولولا تقلب أسعار النقد الذهبي وارتباطه بقلوب أبناء هذه البلاد الذين يؤمنون به إيمانا أوحى به الأعوام الخالية، لما اختلفت الأسعار وارتدت التجارة طابع المضاربات البعيدة عن الطريق السوي.

إن طبيعة الحرب توفر الرزق لأصحاب الحظوظ الذين تواتيهم الأحوال أكثر مما توفره للمفكرين الذين يستخرجون النتائج من المقدمات، والتجارة في الحرب تتمشى مع المغامرات أكثر مما تسير بالحزم والأخذ بالأحواط. وساعدت المناسبات أصحاب اليد الأولى من المستوردين، فكان نصيب مدينة بيروت تتلوها مدينة حلب أوفر قسطا في الحول على المنافع الرئيسة بالنظر لوقوف تجار هذين البلدين في طليعة الفئات المستوردة والمدخرة، ويأتي حظ

دمشق وأخواتها بقية المدن السورية في المؤخرة لأن العاملين في تجارة هذه المدن يستبضعون على عاداتهم من أصحاب المتاجر القاطنين في الثغور والمرافق.

نحن على مثل اليقين بأن البلاد السورية سترتدي بعد الحرب الطابع الصناعي أكثر من الطابع التجاري الذي كانت ترتديه قبلها، فيه بلا شك ستقيم المعامل الصناعية على اختلاف أنواعها متى توفرت لها الأسباب ولأن لها الحديد الذي يستعصي عليها وجوده اليوم، وهي كبيرة الأمل في الحصول على المواد الأولية التي تستلزمها الصناعات، متى تهيأت الأسباب للقائمين بالأمر أن يستنتبوا الأرض حق الاستنبات ويعدون المعادن المركومة في أحشائها، وتتعاون في القطر القوى الثلاث: القوة الإنبائية والمعدنية في أرضه، والقوة الفكرة في سكانه، والقوة اليدوية التي خصها الله بالإبداع، وأجرى لهما ما أجرى من حسن الذوق. فإذا ما تم لهذا القطر أن يكون وحدة اقتصادية ففي مائه وهوائه وتناسق فصوله قوة كامنة تأتي بالعجب العجاب.

خرجت البلاد من الحرب الماضية وفيها القناطير المقتطرة من الذهب الذي دعت إلى إنفاقه الضرورات العسكرية، وما أسرع ما أضاعت بعد تلك الحرب ثروتها الأصلية والفرعية، فكانت أشبه بأم توفي عنها زوجها فترك لها مالا ولم يترك لها عقلا يدبره ويحسن القيام عليه. فإذا قدر لهذه الأرجاء أن تعتبر من الماضي وقد رزقتها هذه الحرب ما لم تكن تحلم به من مال أنفقته فيها الجيوش الحليفة فارتفعت نسبة الأموال المتداولة إلى حد لم تبلغه في عهد من العهود، فإن مستقبلا مليئا بالآمال الجسام ينتظرها فتبواً عرش الاستقلال الاقتصادي الذي فقدته دهر طويلا.

هنالك ساحات اقتصادية تتآزر فيها بعد الحرب الجماعات القاطنة في هذه الديار والجماعات الذين يوافونها، فما على السوريين إلا أن يأخذوا أهبتهم للنزول إلى تلك الساحات، وإذا نزعنا الروح الفردية التي تأصلت فينا، وتقمصنا روح التعاون في الأعمال الصناعية الكبرى، يضعف تأثير الجماعات التي ستغذو المرافق الحيوية، مستندة إلى نظام تعاوني مستمد من أقوى النظم المالية القائمة على مبدأ المنافع المشتركة، فالمال قوة وأقوى ما فيه حسن القيام على تصريفه في وجوه الأعمال المستندة إلى نظام قويم.

أصبحت الثروة العامة موزعة بين الجميع في هذه الحروب، فالمنتجات الزراعية ومكاسب أصحاب المتاجر والأعمال الحرة هي في الجملة علي غير ما كانت عليه قبل الحرب، ومتى صارت الأموال إلى اليد التي تحسن القيام عليها لا تعمد إلى دفنها وهاجة تحت الأرض أو حبسها في صناديق مقفلة، فإن الانتفاع بها يعم جبهة الشعب وعامة طبقات الأمة. إن دمشق تتمتع بعد أن مضى على الحرب خمسون شهرا بأكثر ما تحتاجه من غذاء وكساء، لم يعدم فيها إلا ما لا بال له، ولئن تصاعدت قيم أكثر الحاجيات فذلك ناشئ عن أن مستوى المعيشة العامة قد ارتفع جملة، وارتفعت معه النسب في الأشياء المنقولة وغير المنقولة، والمقياس في أزمنة الحروب هو وجود الحاجيات الضرورية أو عدم وجودها، والفضل في ذلك لدمشق وللمنتج الدمشقي، وللتاجر الذي خاطر بماله ونفسه لتموين بلده، وللحلفاء الذي مونوا هذا البلد، وخاصة في الأيام التي كانت فيها أمواج البحر المتوسط تتلاطم بالدماء.

غوطة دمشق

لا بد للباحث في دمشق أن يعرض الكلام على غوطتها. فالغوطة ودمشق لازم وملزوم، ومعنى الغوطة من الغائط وهو المطمئن من الأرض. والغوطة ما أحاط بدمشق من بساتين وقرى، وسقي على الأكثر مياه بردي ومشتقاته. يبدأ حدها من فوهة الوادي عند الربوة غربا ممتدا إلى المزة وداريا وصحنايا والأشرفية وسبينة وسبينات في الجنوب، وينتهي في الشرق بالريحان والشفونية وحوش مباركة وحوش الأشعري وحوش المتين وحوش خرابو والفضالية والنشابية وبيت نايم، وينتهي في الشمال بجبل قاسيون وسنير. ويشرف الجبل الأسود وجبل المانع على الغوطة من الجنوب كما يشرف عليها جبل الثلج أو جبل الشيخ من الغرب، ويحدها شرقا إقليم المرج، ومن هنا تفتح حدودها فتحة طويلة حتى الحماد أراضي بادية الشام. ويقدر طول الغوطة بنحو عشرين كيلو مترا تقريبا، ويختلف عرضها بين عشرة وخمسة عشر كيلو مترا وتبلغ مساحتها نحو ٤٠٦٠٠ هكتار أي نحو خمسة وستين ألف فدان بفدادين الغوطة أو نحو مائة ألف فدان مصري، ومدينة دمشق داخلية في هذه المساحة وتحتوي الغوطة على اثنتين وأربعين قرية عدا الحدائق والبساتين المحيطة بها، وهي يتألف منها عشر قرى كبيرة.

وفي الغوطة قرى كالمدن مثل دومة وحرستا وعربيل وجوبر وداريا وكفر سوسية والمزة. ومجموع نفوسها لا يقل عن مائة ألف نسمة. وترتبتها أجود تربة تسمد كلما أرويت لأن أنهارها تدخل دمشق وتحمل قاذوراتها، وهذا مما يعاون على خصبها وإمراعها. وفي الغوطة تجود جميع الحبوب والبقول وعمامة

الأشجار المثمرة، ما خلا النخيل والحوامض بسبب برد الشتاء. والغوطة تمون دمشق ومنها أكثر مادة حياتها، ولولا الغوطة ما كانت دمشق.

وهي في مجموعها من أجل متزهات العالم بما حبتها به الطبيعة من جمال أشجارها وخصب أرضها، لا تتعب من إخراج خيراتها صيف شتاء، واشتهرت فاكهة الغوطة بلذيذ طعمها وعجيب نكهتها. فكثيراها ودزاقها ومشمشها وتفاحها وسفرجلها وأعنابها مضرب الأمثال، قال الصلاح الكتبي: وروي عن بعضهم أنه اتفق أن مر يوما ببعض شوارع القاهرة، وقد ظهرت جمال كثيرة حملوتها تفاح فتحي من الشام، فعبرت روائح تلك الحمول فأكثر التلفت لها، وكانت أمامه امرأة تسير ففطنت لما داخله من الإعجاب بتلك الرائحة، فأومات إليه وقالت: هذه أنفاس ريا جلقا، وهذا الشطر من أبيات لطراد بن علي الدمشقي المعروف بالبديع، اشتهرت وغنى بها المغنون وهي:

يا نسيما هب مسكا عبقا	هذه أنفاس ريا جلقا
كف عني، والهوى، ما زادني	برد أنفاسك إلا حرقا
ليت شعري نقضوا أحبابنا	يا حبيب النفس ذاك الموثقا
يا رياح الشوق سوقي نحوهم	عارضنا من سحب عيني غدقا
وانثري عقد دموع طالما	كان منظوما بأيام اللقا

قال ياقوت: وبدمشق فواكه جيدة فائقة طيبة تحمل إلى جميع ما حولها من البلاد، من مصر إلى حران وما يقرب ذلك فتعم الكل. وما برحت الغوطة مقصد أهل دمشق للنزهة والقصف، وقد أخرجت طائفة كبيرة من العلماء والأدباء في مختلف العصور، وهي في الواقع بمثابة أحياء تبعد قليلا عن العاصمة الكبرى، ولا غنى لأبنائها عن الاختلاف إلى العاصمة كل يوم،

فالاختلاط بين الغوطين والدمشقيين متصل، يألف بعضهم بعضا ويتزوج بعضهم من بعض، والغوطة تصبح دمشقية بعد مقامها قليلا في دمشق، والدمشقية تصبح فلاحه غوطية إذا أقامت في الغوطة سنين، نقل فلاحه أي متمرنة على الأعمال الزراعية والأعمال البيتية التي تستلزمها حياة القرى، وفي الغوطة نزل كثير من العرب، تشهد لذلك الفصح الباقية في لهجتهم، ومن العرب الذين نزلوها غسان ويطون من قيس وبها قوم من ربيعة وبعض بطون من كلب، ومن بني زييد فرقة وآل فضل والحريث من زييد من القحطانية.

وللنواجي الشاعر في الغوطة:

ألا إن وادي الشام أصبح آية محاسنه ما بين أهل النهي تتلى
وإن شرفت بالنيل مصر فلم تزل دمشق لها بالغوطة الشرف الأعلى

والشرف الأعلى موضع نزه من غربي دمشق يعلو عن قرارة الوادي. وليس لك في الغوطة أن تقول هذا المكان يفضل ذاك، فكل محالها ومنازلها جميل تأخذ بمجامع القلوب كما قال أحدهم:

أتى انجبت رأيت ماء سابحا متدفقا أو يانعا متهدلا
وكاننا أطيأها وغصونها نغم القيان على عرائس تجتلي
وكاننا الجوزاء ألقنت زهرها فيها وأرسلت المجرة جدولا
ويمر معتل النسيم بروضها فتخال عطارا يحرق مندلا

أو كما قال فتيان الشاغوري:

كان طيور الماء فيه عرائس جلين على شاطئه خضر الغلائل
إذا كرعت فيه تيقنت أنها تزق فراخا وهي زغب الخواصل

وكم سمك فيه عليه جواشن
جريح بأطراف الحصا فخريره
إذا قابل النهر الدجى بنجومه
تغلغل في الوادي فوافي كقينة
فعانقها حتى اثنت مشمعة

من التبر صيغت وهو بادي المقاتل
أنين له من حسن تلك الجنادل
أرانا بقعر الماء ضوء المشاعل
منعمة حسناء ليس بعاطل
تقل على ظهر الصفا بطن حامل

يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قدم الشام رأى الغوطة ونظر إلى المدينة والقصور البساتين، فتلا قوله تعالى: {كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك أورثناها قوما آخرين}. ويروى أن أمير المؤمنين المأمون العباسي أقسم يوماً وقد نظر إلى أشجار الغوطة ونباتها، أنها خير مغنى على وجه الأرض، وقال: عجبت لمن يسكن غيرها كيف ينعم مع هذا المنظر الأنيق الذي لم يخلق مثله.

وحى الغوطة

أتى لي في الغوطة ستون سنة، تسلمني الطفولة إلى الشباب، والشباب إلى الكهولة، والكهولة إلى الشيخوخة، ولاقيت ربيعها وصيفها وخريفها وشتاءها، وما لقيت منها إلا نضرة وسرورا.

أنعشني هواؤها، وأدهشتني أرضها وسماؤها، وما فتئت منذ وعيت أقرأ في صفحة وجهها الفتان آيات الإبداع والإعجاز.

في ربوعها شهدت الطبيعة تقسو وتلين، وتغضب وترضى، وتشح وتسمح، فراغني جمالها وجلالها، وشاقني تجنيها ووصالها. نشقت أنفاس رباها

وهي ترفل في زهرها وزوردها، واستهوتني مجردة من ورقها وثمرها ونباتها، فأخذت بها كاسية عارية، وطابت لي مطيبة وتفلة.

تربة تقبل وتمحل، وأدواح تعمق وتثمر، وجداول تفور وتغور، وآبار تفيض وتغيض، وجو يغيم ويصحو، ودو يعبس وضحك، وهناك هناء، وهناك يسر، وهناك شقاء، وهناك عسر.

أتى الجراد غير مرة على زرعها وثمرها، وسطت الحشرات على خضرها وشجرها، وأحرق الصقيع حبوبها وفاكهتها، وعدا الموتان على دواجنها ماشيتها، وطغى الماء على أدنى بقاعها، فأودى بما أنبتت وبسقت، وعادت هذه الأم الرءوم تدر على أنبائها لبنا سائغا، وتفيض عليهم من عطفها وحنانها كل جميل..

عهدي بها ودمن عشرات المزارع الخربة، بما توالى عليها من نكبات الزلازل والسيول والأوبئة والمجاعات، إلى جانب ألوف الأفدنة تصبح بالدهوب حدائق غلبا، وكانت بالأمس بين مستنقع وبيل، ومرج أفيح. في الغوطة قرى كبيرة تداعب، وقرى كبيرة لم يعف رسمها، وفيها أشجار لا تعيش غير بضع سنين، وأخرى مباركة يحسب عمرها بالقرون.

همت بسحرها في سحرها، وبشمسها تأفل وراء شجرها، وزاقتني وابلها وطلها. ونداها وضبابها، وجليدها وجدها، وثلجها وبردها، ودمقها وزمهيرها، نسيمها وأعاصيرها.

غنتني طيورها بأطيب الأنغام ترددها من وكناتها في جناتها، وما تبرمت الأذن بنعيق البوم ونعيب الغربان، وعواء بنات أوى، نباح الكلاب، ونقيق

الضفادع، في المظلم والمقمر من لياليها، واهتززت للديكة تصيح، والغنم تتأج، والمعيز تنغو، والبقر يخور، والخيل تصهل، والحمير تنهق.

أقبلت مرة أقلب حديقة لنا أنقى أدغالها، وأعزل صخورها وأحجارها، فنبشت على ذراعين من سطحها مقبرة فيها قليل من عظام نخرة، وكثير من خواتم وأقراط وأساور ودمالج، كانت فضتها ونحاسها وحديدها وزجاجها تنفتت لساعتها بأيدينا.

وما فرقنا بين الرجل والمرأة من نزلاء مدينة الموتى، وما بان معنا الشاب من الفتاة، ولا الشيوخ من العجائز، ولا إذا كان من لحدوا فيها مجرسا أو صابئة أو نصارى أو مسلمين، ولا إن كانوا من العرب أو السريان أو اليهود أو الروم، وغاية ما نم عليه ذلك العظم الرميم أنه بقايا أشلاء بشرية كان أربابها يبيجون ويسكنون، ويلؤمون ويبرون، ويشقون ويسعدون. وأبصرت على خطى قليلة من المدفن أثر حوض بديع شيد بالآجر والحجر النحيت، يظهر من ترخيمه أنه بناء بان صناع اليد، وانتهت إلى ديباس عميق فيه جرار عظيمة، وأدوات نشأت من مدينة كانت بنت هذه التربة الزكية، نعم بها أهلها ما قدر لهم أن ينعموا، فلما ناداهم حادي الرحيل تخلوا عن مصانعهم ومرافقهم، وغادروا ديارهم كأن ليم يغنوا فيها.

أدركت أجيالا ثلاثة من الناس، وقبلي رأى الرءون ألوف ألوف الألوف وكلهم كان شأنهم كشأننا، خلقوا على صورتنا، وركبت فيهم أحاسيسنا وغرائزنا، واستحكمت فيهم الشهوات والمطامع، وكانت لهم آمال وأحلام، نرح صالحهم وطالحهم، وراح لطيفهم وكثيفهم، وما عرفوا لم جاءوا ولا إلى أين ذهبوا ولم جدوا وجهدوا، ولم انصرفوا على ألا يرجعوا. أما أجسامهم فقد

نخرت وتبخرت، وتبعثرت ذراتها في الفضاء. وأما أرواحهم فانتقلت إلى عالم لم ندركه بالحس، ولا قدر معنا بحساب، وما علمنا عنه إلا ما أشار إليه الكتاب.

ذهب من درجوا على هذا الصعيد الطيب، تاركين ما كدحوا وجمعوا، ناسين من أحبوا وأبغضوا، وما حال دون قفولهم عطف الأمهات والزوجات، ولا بكاء الأولاد والأخوات. هلك الغني والفقير، والصحيح والمريض، والحبيب والبغيض، وناح النساء على الأعزة الذاهبين يندبون ويولولون، ثم لحق النائحات والنوادر بالصحاب والصواحب.

حقا إن الغوطة كانت على الأيام ساحة تحول، تحولت فيها حتى أزياء الجنسين من سكانها، فغير الرجال في هذه الحقبة لباس رءوسهم ثلاث مرات، وكذلك كان دأب النساء بملاآتهن.

شاطرت القوم أفراحهم وأتراحهم، وكأثرتهم في مواسمهم وأعيادهم، ورأيتهم يلبسون الخلق البالي، ورأيتهم يلبسون الزواق الحرير، رأيتهم يطعمون أطيب الطعام وأمرأه، ورأيتهم لا يشبعون من خبز الذرة والشعير، راقبتهم في سكوتهم وهوشاتهم، وفي تلاتهم ومشاكلهم، وفي سعتهم وضيقهم، وعاشرتهم وسامرتهم، على نقص محسوس في تربيتهم. أدركتهم يستغيضون عن اللبن والطين والقصب والكلس في بنيانهم بالقرميد والآجر والحجر والأسمنت، وعهدتهم يمتطون الفره من الخيل والبيغال والحمير، ويحملون

أثقالهم على الجمال، ويمجرونها بالثيران، ثم اتخذوا المركبات والعجلات، وركبوا الدرجات والسيارات.

أدركتهم تبيض الأمية وتفرخ في رءوسهم، ويعم الجهل كبيرهم وصغيرهم وذكورهم وإناثهم، وما كانت عقول الأذكىء منهم تصل إلى أبعد من القرى المجاورة، واغتنبت أن صار بضعة في الألف من شبانهم وكهولهم يتلون الصحف والكتب، ويستطلعون طلع الأخبار، ويعينهم النظر في المصالح العامة، ويظهرون في مظهر من يحاول مجارة الزمن في حضارته، يستبدلون الأدوات الحديثة في الحرث والتذرية والعصر والاستخراج بأدواتهم القديمة التي جمدت على حالة واحدة لم تتبدل من عهد عاد وثمود. كل ذلك يبطء وتناقل ليناسب اقتباسها قانون الزرع والغراس عندهم: تنمو بحرارة معتدلة وإذا سقيت سقيت بمقدار. إقليم تتصادم عناصر الطبيعة فيه بلا انقطاع، الفناء رابض أبدا إلى جانب البقاء والتبدل على قد غلوة من الاستقرار. عاينت كل هذا فرجعت بمناظر متشاكلة، ولا تزال تتكرر على مر الجديدين. لم أهد سبيلا إلى تعليلها، ولا أدركت ولا أدرك أرياب المدارك هذا السر الدفين في صدر الليل والنهار.

هنا يبدو للعين كفاح الغوطي في كسبه ورزقه، وصراعه في سبيل شهواته وأثرته، هنا تلمح جور القوي على الضعيف، وأن الإنسان في هذه الأرجاء على نحو ما هو في كل مكان، ظالما ومظلوما، وقاتلا ومقتولا، وعزيزا وذليلا.

لحظت الغوطي موسعا عليه، ولاحظته مقترا عليه. عهدته مرهقا بضروب الجبايات، وألفيته يؤدي الجباية طيبة بها نفسه، وأدركت الفقير ينوء بحمل كل عبء والغني يكاد يعفي نفسه من أداء كل شيء.

وجدت الفلاح لا ينسل القدر. اللازم من الأولاد يستغين بهم على استخراج خيرات حقوله، وليقته وقد زاد السكان ستة أضعاف في ستة عقود. وإذا بأرباب الضياع تضيق بهم رباعهم فلا يجزئهم ربيع ما يملكون، وعادوا يقتنون الأرض بالثمن الغالي، ويغنون في الغرام بها، وهم الذين كانوا يجاذرون امتلاك شبر من ترابها فرارا من المغارم والعوارض.

حزنت على الغوطي عبدا، وفرحت له حرا، ألمني عبوسه وتشاؤمه، وسرني ضحكه واستبشاره. كان يرمضني كلما وقعت عيني عليه يسخر كالبهائم، ويقنع بالسياط. ويلطم ويلكم، وهو صابر خانع. ثم ابتهجت يوم نفس خناقه، وعومل معاملة الإنسان. أما هو فلم ينشب أن نسي ما كان يججل به، وعاد يتمرد ويطنغى. نظرت إليه يتهافت على تجويد زراعته، ونظرته يهمل إثارة تربته. ويزهد في رعية ماشيته، طالعته يحبي الليالي لا يبالي أذى البرد، إذا كان ذلك في سقي زرعه وجمع حبه وثمره، وطالعه في حمارة القيظ يكد وسط حقله في حر يزهق الأنفاس، وهو جد طروب كأنه في مجلس أنس يلذه ما يسمع ويرى.

وسجلت أن ضواري الغوطة لا تستشري، والشر في أرجائها محكوم عليه بالزوال، ثبت لي هذا بعد أن رأيت ثعالبا وضباعها توشك أن تبيد، وبعد أن أيقنت أن كواسرها وجوارحها أقل من عصافيرها وحماتها، وقيدت من أخبار الغوطة أنها منعمة محسنة على وجه الدهر، وأن بنيتها أصحاب مضاء يعدون لكل يوم قسطه من العمل، ويقسمون جهودهم أقساما بحسب المواسم، على ما قسمت الفطرة سنتهم إلى فصول، استوفى فيها كل فصل حكمه، وأن في

أرضهم المحبوبة كمعظم بلاد العرب قوى منظمة مستمرة، إلى جنب قوى ضائعة متشرة.

فهرس

٣	دمشق وطبيعتها
٦	تاريخ دمشق السياسي
٣٣	عمران دمشق
٥١	خطط دمشق ومصانعها
٥٨	وصف القدماء والمحدثين لدمشق
٦٦	سكان دمشق وخصائصهم
٧٣	الحياة الأدبية والفنية والصناعية
٨٣	صناعات دمشق
٩٤	تجارة دمشق
٩٨	غوطة دمشق